معارك عربية إسلامية خالدة

١١ - معركة نهاوند

١٢ - معركة فتح الأندلس



دار القلم العربي

معارك عربيّة خالدة

١٢

فتح الأندلس

إعداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار:

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب: 78 هاتف. 2213129 فاكس: 2212361 21 963+

البريد الالكتروني: E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فتح الأندلس

زمانها ـــ وصفها ـــ موقعها ـــ أسبابها ـــ أحداثها

أولاً ـ زمانها :

تمّ فتح الأندلس في سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، وذلك في خلافةِ الوليدِ بنِ عبدِ الملك ، أما بدءُ الفتحِ وتطّلعُ المسلمين إليها فقد كان في سنة سبع وعشرين وفي خلافة عثمان بن عفان ﷺ الذي أمر عبد الله بن سعد بن أبي السرح وكان أخاً له من أمه أن يغزو بلاد إفريقية ، فسار إليها في عشرة آلاف من المسلمين وفيهم عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وقيل: كان معه عشرون ألفا ، ومضى عبد الله بن أبي السرح يقود جنوده ويتوغّل في شمال إفريقية يفتتحها سهلاً وجبلاً، فآمن أهلها ودخلوا الإسلام عن قناعة وإيمان .

وفي مدينةِ سبيطِلَةَ [1] كانتِ المعركةُ الفاصلةُ بين المسلمين والبربرِ [2] حيث انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً بعد أن أوشكوا على الهزيمةِ لولا أن ألهمَ اللهُ عز وجل عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ أن ينقضَّ على ملكِ البربرِ فيقتلَهُ ، فكان قتلهُ سبباً لتغيير سيرِ المعركةِ ، وتحويلها من خسارةٍ محققةٍ للمسلمين إلى نصرٍ ساحقٍ وفتحٍ مؤيَّدٍ مبينٍ ، فكان هذا الموقفُ الشجاعُ والمشرفُ من عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ أولَ موقفٍ اشتُهرَ فيه ولمع نجمهُ ، ودخل إلى قلوبِ المسلمين فأحبوه ، وجعلوه موضعَ ثقتهم واهتمامهم [3].

ودخل المسلمون مدينة سُبيطلةَ بعد حصارٍ طويلٍ ، وقتالٍ عنيفٍ، ولم يفقدوا في هذه المعركةِ رغمَ قوّتِها وضراوتها سوى ثلاثةٍ منهم : أبو ذؤيبٍ الهذليّ الشاعرُ ، فدفنَ هناك ﷺ وأرضاه .

---

(١) سُبيطلة : مدينة من مدن إفريقية بينها وبين القيروان سبعون ميلاً .انظر معجم البلدان .

(٢) ولعلهم الرّوم كما في بعض الروايات .

(٣) انظر التفاصيل في كتابي (سفراء الإسلام) ترجمة عبد الله بن الزبير .

وبعد فتح سُبيطلَةَ بعثَ عبدُ الله بنُ أبي السرحِ جنودَهُ في البلادَ حتى بلغوا قفصة [1] فحاصروها وضيقوا على أهلِها الذين نزلوا على حكمِهم ، وطلبوا منهمُ الأمان ، وصالحوهم بدفعِ الجزيةِ .

وقد روي في الفتوحات الإسلامية أنّ أهلَ إفريقية صالحوا المسلمين على ألفي ألفٍ وخمسمائةِ ألفِ دينارٍ ؛ مليونيْن ونصف المليون .

وبقي أملُ المسلمين بفتحِ الأندلسِ حُلُماً يشغلُهم ويراودُ خيالَهم خلفاً عن سَلَفٍ ، كلما مات خليفةٌ جاء غيرُه ليقومَ بمحاولةٍ لتحقيق الأمل بفتحِ شمال إفريقية للوصول منها إلى الأندلس ، وهي غايتُهُمُ المنشودةُ .

ثانياً ـ وصفُ الأندلس :

الأندلسُ : جزيرةٌ خضراءُ جميلةٌ ، قد أحدقتْ بها البحارُ ، وطوّقتْها المياهُ والأنهارُ ، فأكثرَتْ فيها الخصبَ والخيرَ والنّماءَ ،

(١) قفصة : بفتح القاف وسكون الفاء بعدها صاد مهملة ، بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . انظر معجم البلدان .

وكستْها رداءً أخضرَ يملأُ العينَ بهجةً وروعةً ، والقلبَ جلالاً وجمالاً ، والنفسَ روعةً وسِحراً .

وقال أحدُ أدباء الأندلسِ في وصفِها : فمتى سافرْتَ من مدينةٍ إلى مدينةٍ لا تَكادُ تنقطعُ من العمارةِ مابين قرىً ومياه ومزارعَ ، والصحارى فيها معدومةٌ ، ومِمّا اختصَّت به أنَّ قراها في نهايةٍ من الجمالِ لتصنُّعِ أهلِها في أوضاعِها وتبييضِها لئلا تنبوَ العيونُ عنها ، فهي كما قال الوزيرُ بنُ الحمارةِ فيها[1]:

لاحتْ قُراها بين خضرةِ أيكِها ... كالدُّرِّ بين زَبَرْجدٍ مكنونِ [2]

ومن أحسن ماجاء من الشعرِ في وصفِ الاندلس قولُ ابنِ سفرٍ المريني :

في أرضِ أندلسٍ تُلتَذُّ نعماءُ ... ولا يفارقُ فيها القلبَ سرّاءُ

وليس في غيرها بالعيشِ منتفَعٌ ... ولاتقومُ بحقّ الأنسِ صهباءُ[3]

---

(١) هو محمد بن الحمارة الغرناطي ، تلميذ ابن باجه ، يكنى أبا عامر ، كان بارعاً في علم الألحان وصناعة الأعواد .

(٢) نفح الطيب : ج ١ ــ ص ٢٠٥ ط دار صادر .

(٣) الصهباء : الخمرة .

وأين يعــــدل عـــن أرض تحـــض بهــــا ... علـــى المدامـــة أمـــــواه وأفيـــــاء

وكيف لا يبـــــهج الأبصــــار رؤيتـــها ... وكل روض بها في الوشــــي صنعــاء

أنهارهـــا فضـــة ، والمســـك تربتـــــها ... والخزّ روضتـــــها ، والـــدر حصبـــاء

وللــــهواء بهــــا لطـــف يــرق بــــــه ... من لا يرق ، وتبـــــدو منـــه أهـــواء

ليس النسيم الذي يـــــهفو بهـــا سَـحَراً ... ولا انتشــار لآلي الطـــل أنـــــداء [1]

وأيـــن يبلـــغ منــــها مـــا أصنفــــــه ... وكيف يحوي الذي حازته إحصــاء

قد ميزت من جهات الارض حين بدت ... فريـــدة وتولـــى ميزهـــــا المــــاء

دارت عليــــها نطاقــا أبحـــر خفقـــت ... وجدا بها إذ تبــدت وهـــي حســـناء

لذاك يبسم فيها الزهـــــر مـــن طـــرب ... والطير يشـــدو وللأغصـــان إصغــاء

فيها خلعت عـــــذاري مابهـــا عـــوض ... فهي الرياض ، وكل الأرض صحـــراء

وقال آخر :

لله أندلـــس ومـــا جمعـــت بهــــا ... من كل ما ضمت لهــــا الاهـــواء

فكأنمـــا تلـــك الديـــار كواكـــب ... وكأنمـــا تلـــك البقـــاع سمـــاء

وبكـــل قطـــر جـــدول في جنـــة ... ولعـــت بـــه الأفيـــاء والأنـــداء

وقال آخر :

---

(١) هي في الأصل لآلىء ، فحذفت الهمزة ليستقيم الوزن .

ياحسن أندلس وما جمعت لنـــا	فيها مـــن الأوطـــار والأوطـــان[1]
تلك الجزيرة لست أنسى حســنها	بتعـاقب الأحيـان والأزمـــان
نسج الربيع نباتها مـــن ســندس	موشـــية ببدائـــع الألـــوان
وغدا النسيم بها عليـلا هائمـا	بربوعـــها وتلاطـــم البحـــران
ياحسنها والطـــل ينـثر فوقـــها	دررا خـــلال الـــورد والريحـــان
وسواعد الأنهار قـــد مـــدت إلى	ندمائـــها بشـــقائق النعمـــان
وتجاوبت فيها شـــوادي طيرهـــا	والتفـت الأغصـان بالأغصـــان
مازرتهـــا إلا وحيـــاني بهـــا	حدق البهار[2] وأنمل السوســـان[3]
من بعدها مـــا أعجبتـــني بلـــدة	معَ ما حَلَلْـــتُ بـــه مـــن البلـــدانِ

قال في نفح الطيب : خصَّ اللهُ بلادَ الأندلسِ من الرَّيْعِ . وغدق السُّقيا ، ولذاذة الأقواتِ وفراهـــةِ الحيـــوانِ ، ودرورِ الفواكِهِ، وكثرةِ المياه ، وتبحُّرِ العمرانِ ، وجـــودةِ اللبـــاسِ ،

---

(١) الأوطار : جمع وطر ، وهو الحاجة .

(٢) البهار : ورد أصفر طيب الرائحة .

(٣) السوسن : نبات يشبه الرياحين عريض الورق ، وأجناسه كثيرة وأطيبه الأبيض ، وإنما قـــال الشاعر : السوسان ليستقيم الوزن .

وشرفِ الآنيةِ ، وكثرةِ السلاحِ ، وصحةِ الهواءِ ، وابيضاضِ ألوانِ الأسنان[1] ، ونُبلِ الأذهانِ ، وفنون الصنائعِ ، وشهامةِ الطباعِ ، ونفوذِ الإدراكِ ، وإحكامِ التمدنِ والاعتمارِ ، بما حُرِمَهُ الكثيرُ من الأقطارِ مما سواها ، أعادها اللهُ للإسلام ببركةِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام [2] .

وقال أيضاً في وصفِ الأندلس :

إنَّ الأندلسَ بلدٌ كريمُ البقعةِ ، طيبُ التربةِ ، خصبُ الجنانِ، منبجسُ الأنهارِ الغزارِ والعيونِ العذابِ ، قليلُ الهوامِ وذواتِ السمومِ ، معتدلُ الهواءِ والجوِ والنسيمِ، ربيعُهُ وخريفُهُ ومشتاه ومَصيفُهُ على قدرِ الاعتدالِ وتوسطِ الحالِ ، تتصلُ فواكهُهُ أكثرَ الازمنةِ ، وتدومُ متلاحقةً غيرَ مفقودةٍ[3].

---

(١) ولعله ألوان الإنسان .

(٢) نفح الطيب ج١ ص ١٢٦ .

(٣) المرجع السابق ج١ ص ١٢٩ ـــ ١٣٠ .

وقال ابن اليسعِ : قال لي أبو عبدِ الله البـاكوري وكـان ثقةً: أبصرتُ عند المعتمد بنِ عباد رجلاً من أهـلِ شـنْترَةَ [1] أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يُقلُّ الحاملُ على رأسِهِ غيرهـا ، دورُ كلِ واحدةِ خمسةُ أشبار [2] .

وذكر في نفحِ الطيبِ أيضاً : عن أبي عُبيـدٍ البكـري : الأندلسُ شاميةٌ في طيبها وهوائها ، يمانيةٌ في اعتدالها واستوائها، هنديةٌ في عطرها وذكائها ، أهوازيةٌ في عظمِ جبايتها ، صينيـةٌ في جواهرِ معادنِها ، عدنيةٌ في منافعِ سواحِلها .

فيها آثار عظيمةٌ لليونـانيين أهـلِ الحكمـةِ وحـاملي الفلسفةِ [3].

لقد جمع اللهُ عز وجل فيها خلاصةَ مابتلك الأقطار مـن خصبٍ في الزرع، ووفرةٍ في الرزقِ وكثرةٍ في الخيرِ ، وتنـوُّعٍ في الفاكهةِ ، واعتدالٍ في المناخِ ، وسحرٍ في الطبيعةِ .

---

(١) شنترة : بالفتح ثم السكون ثم التاء بعدها راء مهملة : مدينة من أعمال لشبونة بالاندلس من معجم البلدان .

(٢) أي أن قطرها خمسة أشبار .....!! فتأملْ .

(٣) انظر نفح الطيب ج١ ــ ص ١٢٦ دار صادر .

وهي بأنهارها الكثيرةِ ، وعيونِها الغزيرةِ ، ومياهِها العذبةِ ورياضها النضرةِ ، وحدائقِها الجميلةِ ، وطبيعتِها الخلاّبةِ أضحتْ جنةً يفوحُ منها عبقُ المسكِ وريّا الندى ، وطيبُ الزّهرِ ، وأريجُ الوردِ ، وحَدَقُ البهارِ [1] وجمالُ السوسنِ وسحرُ الفُلِّ والقرنفلِ والياسمينِ، وبالجملةِ إنها جنةُ اللهِ في أرضِهِ..!!

قال بعضُ العلماءِ : إنَّ النّصارى حُرِموا جنةَ الآخرةِ فأعطاهُمُ اللهُ جنةَ الدنيا بستاناً متصلاً من البحرِ المحيطِ بالأندلسِ إلى خليجِ القسطنطينيةِ [2] .

سبب تسميتها بالأندلس

الأندلسُ : كلمةٌ عجميةٌ لم تستعملها العربُ في القديم ، وإنما عرفتْها العربُ في الإسلام ، وقد جرى على الألسنِ أن تلزم الألفَ واللامَ ، وقدِ استُعملَ حذفُهما في شعرٍ يُنسبُ إلى بعضِ العربِ ، فقال أحد هم :

---

(1) حدق البهار : ورد أصفر طيب الرائحة .

(2) نفح الطيب ج١ ـــ ص ١٣٧ . عن دار صادر

سألت القوم عـــن أنـــس فقـــالوا بـــأندلس ، وأندلـــس بعيـــــد[1]

قال التلمساني نقلاً عن ابن سعيد : إنما سميت بأندلس بن طوبال بن أوطوفان بن يافث بن نوح لأنه نزلها ، كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها ، وإليه تنسب سبتة[2].

وقال ابن غالب : إنه أندلس بن يافث[3]. والله تعالى أعلم.

ولعل كلمة أندلس أصلها أندلش بالشين فعرب فيما بعـــد بالسين فصار أندلس ، وذلك نسبة إلى قوم ســـكنوها قديمـــاً يسمون بالأندلش .

قال التلمساني : وأول من سكن الأندلس على قديم الأيـــام فيما نقله الإخباريون من بعد عهد الطوفـــان قـــوم يعرفـــون بالأندلش معجمة الشين ـــبهم سمي المكان ، فعرب فيما بعـــد بالسين غير المعجمة ، كانوا الذين عمروها وتناســـلوا فيـــها ، وتداولوا ملكها دهراً ، على دين التمجّس والإهمال والإفســـاد في الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم ، فحبس المطـــر عنـــهم ،

---

(١) معجم البلدان .

(٢) سبته : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، انظر معجم البلدان .

(٣) نفح الطيب ج١ ــ ١٥١ .

ووالى القحطَ عليهم ، وأعطشَ بلادهم حتى نضبَتْ مياهــــها، وغارتْ عيونُها ، ويبستْ أنهارُها ، وبادَتْ أشجارُها ، فــهلَكَ أكثرهم ، وفرَّ مَنْ قدَر على الفرار منهم ، فأقفرَتِ الأندلـــسُ منهم ، وبقيتْ خاليةً فيما يزعمون مائة سنةٍ وبضعَ عشرةَ سنةً، وذلك مِنْ حَدِّبلدِ الفرنجةِ إلى حدّ بحر الغربِ الأخضر .

ثم ابتعث الله لعمارتها الأفارقةَ ، فدخل إليها بعد إقفارِهـــا تلكَ المدة الطويلة قومٌ منهم أجلاهم ملكُ إفريقية تخفُّفاً منـــهم لإمحالٍ توالى على أهل مملكتِهِ ، فجعل منهم خلقاً في السفنِ مع قائدٍ من قبلِهِ يدعى أبطريقيس ، فأرسوا بريفِ الاندلسِ الغربي، واحتلوا جزيرةَ قادس ، فأصابوا الأندلسَ قد أمطرَتْ وأخصَبَتْ فجَرتْ أنهارُها، وانفجرتْ عيونها ، وحييـــتْ أشـــجارُها ، فنــزلوا الأندلسَ مغتبطين ، وسكنوها معتمرين ، وتوالــــدوا فيها فكثروا ، واستوسعوا في عمارةِ الأرضِ ، ونصّبـــوا مـــن أنفسِهِم ملوكاً عليهم ضبطوا أمرهم ، وتوالـــوا علـــى إقامـــةِ دولتهم ، وهم مع ذلك على ديانةِ مَنْ قبلهم من الجاهلية .. إلى

أن قال : فاتَّسَقَ ملكُهم بالأندلسِ مائةً وسبعةً وخمسين عاماً إلى أن أهلكهمُ اللهُ تعالى [1] .

لماذا سُمِّيتِ الأندلسُ إسبانيا ...؟

ويتابعُ التلمسانيُّ قائلاً : ثم صار ملكُ الأندلسِ بعدَهم إلى عجمِ روما وملِكِهم إشبان بنِ طيطش ، وباسمِهِ سُميت الأندلسُ إشبانيا وذكر بعضهم أنَّ اسمَهُ أصبهان فأُحيل بلسانِ العجمِ .

وقيل : بل كان مولدُهُ بأصبهانَ فغلب اسمُها عليه ، وهو الذي بنى إشبيلية وكان إشبانيه اسماً خالصاً لبلدِ إشبيليه الذي كان ينزلُهُ إشبانُ هذا، ثم غلب الاسمُ بعده على الأندلسِ كلهِ ، فالعجمُ إلى الآن يسمونه إشبانية لآثارِ إشبانُ هذا فيه .

وكان إشبانُ قد غزا الأفارقةَ ففضَّ عساكرَهم ، وأثخنَ فيهم ، ونزل عليهم بقاعدتهم [2] طالقةَ وقد تحصنوا فيها منه ، فابتنى عليهم مدينة إشبيليةَ اليومَ ، واتصل حصرُهُ وقتالُهُ لهم حتى فتحها اللهُ عليه ، واستوتْ له مملكةُ الأندلس بأسرها ،

---

(١) نفح الطيب ج١ ـ ص ١٣٤ .

(٢) القاعدة : العاصمة .

ودان له مَنْ فيها ، فهدم مدينة طالقةَ ونقل رخامَها وآلاتِـها إلى مدينةِ إشبيليةَ ، فاستتمَّ بناءها ، واتخذها دار مملكتِهِ ، واستغلظ سلطانُهُ في الأرض ، وكثرَتْ جموعُهُ ، فعلا وعظَمَ عتـوُّهُ ، ثم غزا إيليا وهي القدسُ الشريفُ من إشبيلية بعد سنتين من ملكة، خرج إليها في السفن فغنمها وهدمها وقتل فيها من اليهود مائةَ ألفٍ ، واسترَقَّ مائةَ ألفٍ ، ونقل رخامَ إيليا وآلاتها إلى الأندلسِ ، وقهر الأعداءَ ، واشتدَّ سلطانُهُ .

وذكر بعضُ الرواة أنَّ الخضرَ عليه السلام وقف بإشبانَ المذكور وهو يحرثُ الأرضَ فقال له : ياإشبانُ ، إنك لذو شأنٍ وسوف يُحظيكَ زمانٌ ، ويعليكَ سلطانٌ ، فإذا أنتَ غلبت على إيليا فارفق بذريةِ الأنبياء ، فقال له إشبانٌ : أساحرٌ أنتَ رحمك الله .....!! ... ؟ أنّى يكونُ هذا مني وأنا ضعيفٌ ممتَهنٌ حقيرٌ فقيرٌ ليس مثلي ينال السلطانَ ...؟

فقال الخضرُ :قد قدّر ذلك فيك مَنْ قَدَّرَ في عصاك اليابسةِ ماتراه ،فنظر إشبانُ إلى عصاه فإذا بها قد أورقتْ ، فريع لما راى من الآيةِ .

وذهب الخضرُ عنه وقد وقع الكلامُ بخلده ، ووقرتْ في نفسهِ الثقةُ بكونه فترك الامتهانَ[1] من وقتهِ ، وداخل الناس ، وصَحِبَ أهلَ البأسِ منهم ، وسما به جدُّهُ فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيماً ، وكان منه ماكان ، ثم أتى عليه ماأتى على القرون قبله ، وكان ملكُهُ كلُّهُ عشرين سنةً وتمادى ملكُ الإشبانيين بعدَه إلى أن ملكَ منهم الأندلسَ خمسةٌ وخمسون ملكاً .

ثم دخل على هؤلاء الإشبانيين من عجم روما أمةٌ يُدعون البشتولقات[2] وملكهم طلويسُ بنُ بيطةَ ، وذلك زمن بعثِ المسيح بنِ مريمَ عليه السلام، أتوا الأندلسَ من قبلِ روما ،وكانوا يملكون إفرنجةَ معها ، ويبعثون عمّالَهم إليها ، فاتخذوا دار مملكتِهم مدينة ماردةَ ، واستولوا على مملكةِ الأندلسِ ، واتصل ملكهم بها مدةً إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً ثم دخل على هؤلاء البشتولقاتِ أمةُ القوطِ مع ملكٍ لهم ، فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من صاحب روما ، وتفردوا

---

(١) الامتهان : عمل الإجارة .

(٢) ويروى : الشبونقات والبشرلقات والبشتونقات ، ولست أدري أية أمة هي .

بسلطانهم ، واتخذوا مدينةَ طُليطلة دارَ مملكتهم ، وأقــرُّوا بهــا سريرَ ملكهم ، فبقيَ بإشـــبيلية عَلَـــمُ الإشـــبانيين ورياســة أوليتهم[1].

ثالثاً : موقعها :

يقولُ ياقوتُ الحمويُّ في معجمِ البلدانِ وهو يحددُ موقـــعَ الأندلسِ :

هي جزيرةٌ ذاتُ ثلاثةِ أركانٍ مثل شكلِ المثلثِ قد أحـــاط بها البحران المحيط والمتوسطُ ، وهوَ خليجٌ خارجٌ مـــن البحـــر المحيطِ قربَ سلا من برِّ البربرِ .

فالركن الاول : هو في هذا الموضع الذي فيه صنمُ قادس، وعنده مخرجُ البحرِ المتوسطِ الذي يمتدُّ إلى الشامِ، وذلك مـــن قبلي الأندلسِ .

والركن الثاني : شرقيَّ الاندلسِ بين مدينةِ أربولـــةَ الـــتي تقابل البحر المتوسط ، ومدينةِ بُرْدبلَ التي تقابلُ البحرَ المحيط .

---

(١) نفح الطيب بتصرف .

والركنُ الثالثُ : هو مابين الجوفِ والغربِ من حيِّزِ جلّيقيةَ حيثُ الجبلُ الموفي على البحرِ ، وفيه الصنم العالي المشبَّهُ بصنمِ قادس[1] .

والأندلسُ عند علماء أهلِهِ أندلسان :

فالأندلسُ الشرقيُّ منه ما صبَّتْ أوديَتُهُ إلى البحر الرومي المتوسطِ[2] المتصاعد من أسفلِ أرضِ الأندلسِ إلى المشرقِ ، وذلك ما بين مدينةِ تُدْمير إلى سَرَ قُسْطةَ [3].

والأندلس الغربيُّ : ماصَبَّتْ أوديتُهُ إلى البحرِ الكبيرِ المعروف بالمحيطِ أسفلَ من ذلك الحدِ إلى ساحلِ الغربِ [4] .

وبحكم هذا الموقعِ الجغرافي الذي يحيطُ به البحرُ المتوسطُ من الشرقِ والجنوبِ الشرقي ، والمحيطُ الأطلسيُّ من الغربِ ، وبحرُ الزقاقِ من الجنوب، وخليج بسكونية من الشمالِ ، جعله

---

(١) انظر معجم البلدان .

(٢) أي هو البحرُ الأبيض المتوسط الذي كان يسمى بحرَ الروم، والبحر المتوسط ، وبحر الشام.

(٣) سرقسطة : بلدة مشهورة بالأندلس مبنية على نهر كبير ، وهي ذات فواكه عذبة لها فضل على سائر فواكه الاندلس .

(٤) المراد بالبحر المحيط : المحيط الأطلسي .

يكتسب مناخا طبيعيا دائم الخضرة كأنه موشى بوشاح أخضر يضفي عليه منظرا خلابا يملا العين سحرا وجلالا ، والقلب بهجة وجمالا ، والنفس روعة وبهاء .

ومن أجمل ماقيل في وصفها : فيها بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مريعة[1] ، وقلاع منيعة

حبذا أندلس من بلد لم تزل تنتج لي كل سرور
طائر شاد ، وظل وارف ومياه سائحات وقصور

قال بعض المؤرخين : طول الأندلس ثلاثون يوما ، وعرضها تسعة أيام . وقال آخر : إن جزيرة الاندلس مسيرة أربعين يوما طولا في ثمانية عشر يوما عرضا .

ويشقها أربعون نهرا كبارا ، وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار ،

---

(١) الرساتيق جمع رستاق : لفظ معرب يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم . والمريعة : هي الأماكن المخصبة بكثرة الكلأ ، يري ألها موشاة ببساط أخضر يحيط بها من كل جهة .

وأكثرُ من ثلاثمائةٍ من المتوسطةِ ، وفيها من الحصون والقـــرى والبروجِ مالا يُحصى كثرةً ، حتى قيل: إنَّ عددَ القــرى الـــتي على نهرِ إشبيلية اثنا عشرَ ألفَ قريةٍ ، وليس في معمــورِ الأرضِ صُقعٌ يجدُ المسافرُ فيه ثلاثَ مدنٍ وأربعاً من يومِهِ إلا بالأندلس.

ومن بركتها أنَّ المسافرَ لا يسيرُ فيها فرسخين دون مـــاءٍ أصلاً ، وحيثما سار من الأقطارِ يجدُ الحوانيـــتَ في الفلـــواتِ والصحاري والأوديةِ ورؤوسِ الجبالِ لبيعِ الخبزِ والفواكهِ والجبنِ واللحمِ والحوتِ وغير ذلك من ضروبِ الأطعمة[1].

رابعاً ـ أسبابها :

إنَّ من أهمّ الأسبابِ التي دَعتِ المسلمين إلى فتحِ الأندلـس قـــولَ رســـولِ الله ﷺ : ﴿ إنَّ الله زوى لي مشـــارقَ الأرضِ ومغاربَها ، وسيبلغُ ملكُ أمّتي مازُوِي لي منها ﴾ [2] .

فكان هذا الحديثُ الشريفُ حافزاً للمسلمين لنشرِ الديـــن الإسلامي في شرقِ الارضِ وغربِها منذ بدءِ الخلافةِ الراشـــدةِ في

---

(١) نفح الطيب ج١ ـــ ص ٢٢٦ .

(٢) الحديث رواه الشيخان .

عصرِ أبي بكرِ الصديقِ ﷺ الذي سَيَّرَ الجيوشَ لقتالِ المرتدين من جهةٍ ، وإلى فتحِ العراقِ والشامِ من جهة أخرى ، فتمَّ القضاءُ على المرتدين ، وفُتِحَ العراقُ والشامُ ، وقُضيَ على الفرسِ والرومِ في ذينكَ القطرين العربيين ، وارتفع لواءُ الإسلامِ فوق ربوعِهما عالياً خفّاقاً يشهدُ بعظمةِ الإسلامِ ، وينطقُ بصدقِ أبنائِهِ وإخلاصِهِم لدينهم وجهادِهِم في سبيلِ اللهِ .

وفي خلافةِ عثمانَ ﷺ بعثَ عبدَ اللهِ بنَ سعدِ بنِ أبي السرحِ إلى شمالِ إفريقيةَ فافتتح قسماً كبيراً منها غيرَ أنَّ الأندلسَ لم يفُتَحْ منها شيءٌ لأن المسلمين لم يكونوا قد أعدوا خطةً لفتحها مع أن أحلامَهم كانت تطيرُ إليها وتحلّق في أجوائها .

وفي سنةِ ثمانٍ وثمانين بعث الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ في خلافتِهِ موسى بنَ نُصيرٍ على إفريقيةَ وما خلفَها ، فخرج في نفرٍ قليلٍ من المتطوعين إلى مصرَ ، ومنها أخذ معه بعثاً من جندِها ، وجعل على مقدمةِ جيشِهِ طارقَ بنَ زيادٍ ، فلم يزل موسى وطارقٌ يقاتلان البربرَ ، ويفتحان البلادَ حتى بلغا مدينةَ

طنجة[1] فحاصراها ، ثم قاتلا أهلها حتى تمَّ لهما الفتحُ والنصرُ وإسلامُ أهلها ، ولم تكن فُتِحَتْ من قبل .

وفي سنةِ إحدى وتسعين ، وفي شهرِ رمضانَ المباركِ بالتحديد دخلَ جزيرةَ الأندلس من المسلمين بقصدِ الجهادِ طريفٌ البربريُّ الذي دخلها على رأس مائةِ فارسٍ وأربعمائةِ راجلٍ بعد أن اجتاز البحرَ في أربعةِ مراكبَ ، فدخل جزيرةَ طريفٍ التي تقعُ على المجاز ، وإليه تنسبُ ، ولذلك قيل: جزيرةُ طريفٍ .

ولعلَّ أهمَّ أسباب فتحِ الأندلسِ وقوعُ الخلافِ بين لُذريقَ ملك القوطِ وبين يُليانَ ملكِ سبتةَ الذي على مجاز الزقاق .

سببُ الخلاف بين لُذريقَ ويليانَ :

كانت طُليطَلَةُ[2] عاصمةَ الأندلسِ ودار الملك قبل الفتحِ الإسلامي ، وكان الملكُ يومئذٍ رجلاً شديداً ، وشجاعاً ، وبطلاً مجرباً يُلَقَّبُ بلُذريق وهو ليس اسماً له بل هو لقبٌ لكلِ

---

(١) طنجة : بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء ، وهي آخر حدود إفريقية .

(٢) طليطلة : مدينة كبيرة بالأندلس تقع غربي ثغر الروم على شاطئ نهر تاجة بينها وبين قرطبة سبعة أيام للفارس .

من يحكمُ طُليطلةَ ، وكان يُليانُ عاملاً للذريقَ على سبتةَ وتابعاً له ، وكانت سبتةُ يومئذٍ في يدِ صاحبِ الأندلسِ الذي هو لُذريقُ .

وكانتِ العاصمةُ طُليطلةُ مركزَ العلمِ والعلماءِ، وموئلَ الأدب والأدباء يفدُ إليها أبناءُ الحكامِ والأمراء ، والسادة والأغنياء ، فيتلقون فيها العلمَ ، وينهلون من ينابيع الحكمةِ والمعرفةِ ، وكان ذلك يتمُّ بإشرافِ الملك لُذريقَ نفسهِ ، فيصبحُ هؤلاء الوافدون من خاصته والمقربين لديه ، وكان يُليان عنده ابنة فائقةُ الجمال، ليس في أهلِ ذلك الزمانِ فتاةٌ تقارنها فتنةً وجمالاً ، فحدث أن أرسلها والدُها يليانَ إلى العاصمة طليطلةَ ، فلما رآها لُذريقُ فُتنَ بجمالها ، ووقع حبُّها في قلبهِ ، وهام بها وأحبَّها حباً شديداً، ولم يملك نفسَه حتى هجم عليها كالوحش المفترس فاستكرهها واعتدى عليها ، وراحتِ الفتاةُ تبحثُ عن وسيلةٍ لتُخبرَ أباها بما صنع لُذريقُ ، فاستطاعتْ بحيلةٍ ما أن تكتب له في خفيةٍ ، وأن ترسلَ إليه سراً ، فلما بَلغهُ النبأُ ثار ثورةً شديدةً ، واشتَّدتْ حميتهُ ، وقال : ودينِ المسيح لأزيلنَّ

ملكَهُ وسلطانهِ ، ولأحفرَنَّ تحت قدميه ، ولأسلّطَنَّ عليه من يذلُّهُ وينتقم لشرفي منه .

فكان امتعاضُهُ من جريمةِ لُذريقَ وفاحشةِ ابنتِهِ هو السببَ في استعانتهِ بالعربِ المسلمين على خصْمهِ لُذريقَ ، الذي ترتَّب عليه فتحُ الأندلسِ كما سبق في علمِ اللهِ تعالى وقدرِهِ .

هذا ... وكان القتالُ بين يُليان وموسى بنِ نُصيرٍ سجالاً، يغلبُ هذا مرةً ، ويغلبُ هذا مرةً ، فكفّا عنِ القتالِ ، واستقرَّ موسى بنُ نُصير بدارِ إمارتِهِ بالقيروان [1] ، ويُليان بدارِ عملِهِ سبتةَ إلى أن حدث ما ذُكر منِ اعتداءِ لُذَريقَ على ابنةِ يُليان الذي لم يستطع أن يسكتَ عمّا لحقَ به من ذُلٍّ وما تسبَّبَ له لُذريقُ من عارٍ ، فتهيأ للمسير إلى عدوّه القديمِ موسى بنِ نُصيرٍ ليستعينَ به على عدوّه الحقيقي لُذريقَ الذي لطخّ شرفَهُ بالذلِ والعارِ ، فلم يجد يُليانُ نفسَهُ إلا وهو بالقيروان يقابلُ أميرَها موسى بنَ نصيرٍ .

(١) القيروان : مدينة عظيمة بإفريقية ، وهو لفظ معرب ويعني بالفارسية كارَوان .

خامساً ـ أحداثُها

يليانُ يستعينُ بموسى بنِ نُصيرٍ على لُذَريق :

دخلَ يليانَ على موسى بنِ نُصيرٍ ، وعرضَ عليه أمرَ غـــزوِ الأندلس ، وأنه عونٌ له ونصيرٌ ، وأخذ يصفُ له جمالها وحُسْنَ موقعِها ، وطيبَ مناخها ، وما جمَعَتْ من أشـــتاتِ المنـــافعِ ، وكثرةِ المزارعِ ، وغزارةِ أنهارها ، وعذوبةِ مياهها ، واعتـــدال طقسِها ، ووفرةِ رزقِها ، وبساطةِ الحياةِ وعفويّتِها .

ووصفَ له أحوالَ رجالِها ، وضعـــفَ بأسِـــهِم ، وقلـــةَ شجاعتهم ، وعدمَ تمرُّسِهِم بأمرِ القتالِ ، وفنـــونِ اســـتعمالِ السيفِ والرمحِ ، وعجزَهم عن مُقارعةِ الفرسان ، ومواجهـــةِ الأبطال .

ولَم يزلْ يليان يُمَنِي موسى بنَ نُصير بفتـــحِ الأندلـــسِ ، وسهولةِ النصرِ على أهلِها حتى اقتنعَ بالأمرِ، وتشوَّقَ إلى الفتحِ، وأخذَ بالحزمِ فيما دعاه إليه يُليانُ ، وتمَّ الاتفاقُ بينـــهما علـــى التعاون معاً على غزوِ الأندلسِ ، فعاد يُليانُ ، فجمعَ الرجـــالَ الذين يثقُ بهم ، فحملهم في مَرْكبين وحلَّ بســـاحلِ الجزيـــرةِ الخضراءِ ، فأغارَ وقتلَ ، وسَبى ، وغنِم ، وأقام بها أيامـــاً ، ثم

رجع برجالهِ سالمينَ ، وانتشرَ الخبر حتى بلغَ المسلمينَ فأنسوا بيليانَ ، واطمأنّوا إليه ، فكتب موسى بنُ نُصير إلى أميرِ المؤمنينَ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ يخبرُه بما دعاه إليه يُليانٌ من أمرِ فتحِ الأندلس ، يستأذنهُ في اقتحامِها .

فكتب إليه الوليدُ : أنْ خُضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شانَها ولا تُغررْ بالمسلمين في بحرٍ شديدٍ الاهوالِ .

فرَدَّ عليه موسى يخبرُهُ أنه ليس ببحرٍ زخّارٍ ، وإنما خليجٌ منه يبدو للناظرِ ما خلفَهُ .

فكتب إليه : وإنْ كانَ فلا بُدَّ منِ اختبارِهِ بالسرايا قبلَ اقتحامِهِ . فبعث موسى رجلاً من مواليه ، شديدَ البأسِ ، قويَّ المراسِ ، خبيراً بأمورِ الحربِ والقتالِ ، قيل : كان بربرياً واسمهُ طريفٌ ، ويكنى أبا زرعةَ ، وهو الذي تقدم الحديثُ عنه ، والذي صَحِبَ مائةَ فارسٍ وأربعمائةِ راجلٍ ، فنزل بجزيرة تقابلُ جزيرةَ الأندلسِ ، وهي الجزيرةُ التي يقال لها الجزيرةُ الخضراءُ ، ثم سُمّيتْ بجزيرة طريفٍ لأن طريفاً نزلها ، فاقام بها أياماً حتى اجتمع إليه عددٌ من رجالِهِ المقاتلينَ الأشدّاءِ ، فأغار بهم على الجزيرةِ ، وانطلقَ ينشرُ الرّعبَ بين أهلِها من بابِ

استعراضِ العضلاتِ ، وجسٍّ النبض تمهيداً لهجوم كبيرٍ كاسحٍ وحاسمٍ وكان ذلك في شهرِ رمضان سنةَ إحدى وتسعين ، فلما رأى الناسُ ما حَلَّ بهم خافوا على أنفسهم ، واحتموا في منازلهم تحسُّباً من أمرٍ أكبرَ ، وخطبٍ أجسمَ ، وهجومٍ أوسع .

وقيل دخل طريفٌ الجزيرةَ في ألفِ رجلٍ فأصاب سبياً وغنائمَ ، ثم دخل بعده أبو زُرعةَ شيخٌ من البرابرةِ في ألفِ رجلٍ أيضاً فأصابوا أهلَ الجزيرةِ قد تفرقوا عنها ، فأشعلوا النارَ في معظمِ أنحائها ، وأضرموها قويةً لاهبةً ، فَسرتِ النيرانُ إلى كنيسةٍ بها كانتْ عندهم معظَّمةً ، ثم انصرفوا سالمين بعد أنْ تأكّدوا أنَّ الخوفَ والذُّعرَ قد سيطرا على أهلِها ، ولم يبقَ لهم إلا أن يَسْتسلموا ويخْلوها للفاتحينَ الأشدّاء .

إسناد أمرِ الفتحِ إلى طارقِ بنِ زياد :

علم يُليان بالهجمات السَّريعةِ والشَّجاعةِ التي قام بها طريفٌ وأبو زُرعةَ ، وما خلَّفَتْ وراءها من خوفٍ وذُعرٍ ، وقلقٍ واضطرابٍ بين أهلِ الجزيرةِ فسُرَّ بذلك سروراً عظيماً ، وفرح به فرحاً شديداً ، واستبشرَ به خيراً ، لا لشيء ، إنما ليشفيَ غليلهُ ، ويخمدَ نارَ غيظهِ المتأججِ ، وينتقمَ من لُذَريقَ لفعلته

القبيحةِ الشنيعة ، وخيانة الأمانة باعتدائه على ابنته فعقد العزم على الأهاب مرةً أخرى إلى موسى بنِ نُصيرِ ليثيرَ حماسَهُ بالزحفِ والهجومِ الحاسمِ لانّ الفرصةَ أصبحتْ سانحةً ، والظروفَ باتتْ أكثرَ خدمةً وتهيؤاً من ذي قبلُ .

فانطلق إلى القيروانِ وهي دارُ إقامةِ موسى ، فأخبره بما كان من أمرِ طريفٍ وأبي زُرعةَ ، ونتائجِ هجومهما وإغاراتِهما، فحمدَ اللهَ على ذلك ، واستجدَّ عزماً ، وقرر القيام بالهجومِ ، وجعل طارقَ بنَ زياد قائدَ الجيشِ ، وأسنَدَ إليه مهمةَ الفتحِ ، وبعثهُ على رأسٍ سبعةِ آلافٍ من المقاتلين ، ومعه يُليانُ الذي أمَّنَ له المراكبَ لنقلِ المقاتلين عبرَ البحرِ .

وانطلق طارقٌ عبرَ البحرِ حتى نزل مع جنودِهِ بجبلِ طارقٍ المنسوبِ إليه إلى اليوم ، وكان ذلك في شهرِ شعبانَ من السنة الثانية والتسعين ، المصادف لشهرِ آب ، وكان عددُ السفنِ أربعاً ، لم تستوعبْ جميعَ الجنودِ لذلك تمَّ نقلهم على دفعاتٍ حتى توافوا جميعاً ، واجتمعوا عنده بالجبلِ .

وقيل: حلَّ طارقٌ بجبلِهِ يومَ الاثنين لخمسٍ خلون من شهرِ رجبِ من نفسِ السنةِ في اثني عشرَ ألفاً ، أجازهم يُليانُ إلى

ساحلِ الأندلسِ في مراكبِ التجارِ بحيثُ لا يعلم أحدٌ أنهم مقاتلون ، ثم ركب طارقٌ آخرهم .

استعداد لُذريقَ لمواجهةِ طارق بنِ زياد :

حدث ذلك في حالِ غيابِ لُذريقَ الذي كان مشغولاً بأرضِ ينبلونةَ يغزو قوماً يقالُ لهم البشكَنْس ، فلما فرغ من قتالهم ورجع إلى طُليطلةَ عاصمةِ الأندلسِ ، عَلِمَ بهجماتِ العربِ المسلمين ، وتوالي إغاراتهم السريعةِ والخاطفةِ على الجزيرةِ ، وما تسبّب عنها من إيقاعِ الخوفِ والذعرِ بين أهلها، وأن يُليانَ هو الذي أوغرَ صدورهم ، وألّبهم على الهجومِ ، وتحالفَ معهم على القتالِ ، فغضب من ذلك غضباً شديداً ، وأقسم أنْ ينتقم منه أشدَّ الانتقامِ ، ويجعلَهُ عبرةً لكلِ من يحاولُ أن يتمرَّدَ على سيِّدِه ، ويتآمرَ عليه ، فجمع فرسانَهُ ، وعبَّأ جنودَه ، واستنفرَ سكانَ الأندلس للدفاعِ عن بلادهمِ ، واستنهض هممَهم للقتالِ ، وردّ العدوانِ ، وكتب إلى أولادِ غيطشةَ ، وكانوا قد ترعرعوا ، وأصبحوا فرساناً يجيدون القتالَ، وركوبَ الخيلِ ، واتخذوا لأنفسهم رجالاً أشداءَ يعتمدون عليهم إذا مانزلتْ بهم كارثةٌ ، أوحلتْ بهم مصيبةٌ

عندما يعقدون العزم على قتالِ لُذريقَ لاستعادةِ ملكِ أبيهم — وسيأتي توضيحُ ذلك .

كتب لُذريقُ إلى أولادِ غيطشةَ يدعوهم إلى الاجتماع معه على حربِ العربِ ، ويحذرهم من القعودِ عنه ، ويحضُّهم على أن يكونوا معه على عدوِّهِم يداً واحدةً ، فلم يجدوا بداً من طاعتِهِ والاستجابة لأمرِهِ ، فحشدوا رجالهم ، وقدموا عليه وكان معسكراً بجنودِهِ في قرطبةَ ، فنزلوا في أطرافِ قريةِ شَقُندَةَ [1]، وهم حذرون متيقّظون غيرُ مطمئنين إلى الدخول تحت إمرتِهِ لأمرٍ في أنفسهم ، فجمعوا مَنْ يثقون بهم مِنَ الرجالِ ، وقالوا : إنّ هذا الخبيثَ غلب على سلطاننا ، وأخذ ملكَ أبينا ، وانفردَ به ، وجعلنا تابعين له ، منقادين لأمره لا حولَ لنا ولا قوة ...!! وليس هو من الأسرة المالكةِ ، ولا أهلاً للملكِ، وإنما كان من أتباعنا ، فلسنا نعدم من أمرِهِ ضعفاً وخبالاً ، وهؤلاء القومُ الطارقون لاحاجةَ لهم في استيطانِ بلدنا وإنما مُرادُهم أنْ يملؤوا أيديهم من الغنائمِ ، ثم يخرجوا عنّا ، فهلمَّ بنا ننطلقْ إليهم لعلهم يكفوننا كيدَهُ ومكرَهُ ، ويكونون

(١) قريةُ شَقُندةَ : تقع بعدوة نهرها قبالةَ القصر بقرطبةَ .

لنا عوناً عليه ، ثم أرسلوا إلى طارق يُعلمونه أنَّ لُذريـــق هـــذا ليس ملكاً حقيقياً ، إنما كان تابعاً وخادماً لأبيـــهم ، فغلبـــهم على السلطةِ ، وغصَبَ منهم مُلكَ أبيهم بعد موتـــهِ وكـــانوا صغاراً ، وأنهم الآن غيرُ تاركي حقِهِم ، وسوف يفعلون مــــا بوسعهم لاستعادتِهِ .

وسألوه الأمانَ على أن يميلوا إليه عند بدءِ القتالِ ، ومعـــهم كثيرٌ من مؤيّديهم، وأنْ يعطيَهم ضيـــاعَ والدهـــم وأملاكـــهُ ومزارعَهُ إذا فتح الأندلس كلَّها، وكانت ضياعُ أبيهم ثلاثـــة آلاف ضيعة من أجملِ وأغنى ماخلق الله تعالى من بلادِ ، وهـــي التي سُمّيتْ بعد ذلك صفايا الملوك ، فأجابهم طارقٌ إلى ذلك.

كيف وصل لُذريقُ إلى حكمِ الأندلسِ ...؟

ذُكِرَ في نفحِ الطيبِ : أنَّ آخرَ ملوكِ الأندلس الذين تلتـــهم العربُ : غيطشةُ ، وأنه هلك عن أولاد ثلاثةٍ صغارٍ لم يصلحوا للملكِ ، فضبطتْ أمُّهم عليهم ملـــكاً والدِهـــمِ بطُليطلـــةَ ،

وانحرف لُذريقُ قائدُ الخيل لوالِدِهم فيمن تبعه عنهم فصار بقرطبةَ[1].

وقال ابنُ حيّانَ في المقتبسِ : ذكروا أنَّ لُذريقَ لم يكنْ من أبناء الملوكِ ، ولا بصحيح النسبِ في القوط ، وأنه إنما نال الملك من طريقِ الغصبِ عندما مات إغطشةُ[2] الملكُ الذي كان قبله ، وكان اثيراً لَديه ، مكيناً .

فاستصغر أولاده لمكانهِ ، واستمالَ طائفةً من الرجالِ مالوا معه ، فانتزع الملك من أولادِ إغطشةَ ، واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دبَّروا عليه [3] .

خطبةُ طارقِ بنِ زيادٍ في الجيشِ :

تمَّ الاتفاقَ بينَ الأميرِ طارق بنِ زياد ، وبين أولادِ غيطشةَ سراً ، الذين انحازوا إلى جيشِ لُذريقَ كَي يأمنَ جانبهم وليتمكنوا من تنفيذِ الخطةِ التي اتفقوا عليها لتخذيلهِ ومن ثمَّ

(١) نفح الطيب ج١ ــ ص ٢٥٦ .

(٢) إغطشة : هو غيطشة ، ولعل أحد اللفظين فيه تحريف .

(٣)نفح الطيب ج١ ــ ص ٢٤٨ .

القضاءِ عليه ، وكان جيشُ لُذريقَ قد بلغ نحو مائةِ ألفِ مقـاتلٍ استعداداً لقتال المسلمين ويُليانَ وإخراجِهِمْ مِنَ الجزيرةِ .

فكتب طارقٌ إلى موسى بنِ نُصير يستمدُّه بالرجال ، ويخبرُه أنَّ لُذريقَ زحف إليه بما لا قبلَ له به ، إلا أن يشاء اللهُ .

وكان موسى منذ وَجَّه طارقاً إلى الأندلس ، قد شرع بعمل السفنِ وتجهيزها حتى صار لديه عددٌ كثيرٌ منها ، لأنَّ هذا أمرٌ لا بُدَّ منه لمن يخوض غمار مثلِ هذه الحروبِ ، وتنفيذٌ لقولِ اللهِ تعالى : ﴿ وأعِدُّوا لهمْ ما استطعتم من قوةٍ ومن رباطِ الخيلِ ترهبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم .... ﴾ [1] .

فحمل موسى في بعض تلك السفنِ خمسةَ آلافٍ من المقاتلين المسلمين ليكونوا مدداً لجيشِ طارقٍ ، يضافون إلى سبعةِ الآلاف الذين خرجوا معه أولاً ليصبحَ عددُ المقاتلين اثني عشر ألفاً ، ومعهم يُليانُ المتحالفُ معهم في رجالِهِ من أهلِ عملِهِ الذين خرجوا معه مؤيدّين له ومناصرين يكشفون لطارقٍ السُّبُلَ والثغراتِ ، ويتجسَّسون له الأخبار .

(١) الآية ٦٠ من سورة الانفال .

وذكر بعضُ المؤرخين : أن طارقاً لما نزل الجبلَ المُسمّى باسمِهِ إلى اليومِ ، كتب تُدْميرُ ـ وكان عاملاً للذَريقَ على بعضِ الأندلسِ ، وإليه تُنسبُ تدميرُ بالأندلسِ ـ إلى لُذَريقَ : إنه قد نزل بأرضنا قومٌ لا ندري أمِنَ السماءهم أم من الأرضِ..!! فلما بلغ لُذريقَ الكتابُ ، وكان يقاتلُ البُشكنس كما تقدم ، فترك القتال ، ورجع إلى الأندلس في سبعين ألفَ فارسٍ، فلما بلغ طارقاً مجيئُهُ ، وكان بعضُ جنودِهِ قد دخل إلى قلوبهم الخوفُ والجزعُ ، لا سيما وأنهم سيواجهونَ عدواً شرساً له خبرةٌ في القتالِ ، وأنهم في أرضٍ ليست بأرضِهِم ، ولا يعلمون عن طبيعتها شيئاً .

من أجل هذا قام طارقٌ فيهم خطيباً ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه بما هو أهلُهُ ، ومضى في خطبته يحثُّهم على الجهادِ في سبيلِ اللهِ ، ويرغبهم فيه فقال :

أيها الناسُ ، أين المفرُّ ...؟ البحرُ من ورائكم ، والعدوُّ أمامكم ، وليس لكم واللهِ ، إلا الصدقُ والصبرُ .

واعلموا أنكم في هذه الجزيرةِ أضيعُ من الأيتام ، في مأدُبةِ اللئامِ ، وقدِ استقبلكم عدوكم بجيشهِ وأسلحتِهِ ، وأقواتُهُ

موفورةٌ ، وأنتم لا وَزرَ[١] لكم إلا سيوفكم ، ولا أقــواتَ إلا ماتستخلصونه من أيدي عدوّكم ، وإنِ امتدَّتْ بكمُ الأيامُ على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبَتْ رِيحكم[٢] وتعوّضــت القلوبُ من رُعبها منكم الجراءةَ عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلانَ هذه العاقبةِ من أمركم بمناجزة هذا الطاغيــةِ[٣]، فقــد ألقتْ به إليكم مدينتهُ الحصينةُ ، وإنَّ انتهازَ الفرصةِ فيه لممكــن إنْ سمحتم لانفسكم بالموت ، وإني لم أحذِرْكم أمراً أنا عنــه بنجوة[٤] ، ولا حملتكم على خطةٍ أرخصُ متاعٍ فيها النفــوسُ إلا وأنا أبدأ بنفسي .

واعلموا أنكم إنْ صبرتم على الأشقِ قليــلاً ، اســتمتعْتم بالأرفه الألذّ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فمــا حظُّكم فيه بأوفى من حظي ، وقد بلغكم ما أنشــأتْ هــذه

---

(١) لاوزر : لا ملجأ .

(٢) ذهبت ريحكم : ذهبت مهابتكم من قلوب أعدائكم .

(٣) يريد بالطاغية : لذريق .

(٤) النجوة : النجاة ، يريد أنه ليس ناجياً من الموت دونهم .

الجزيرة من الحورِ الحسانِ ، من بناتِ اليونانِ ، الرافـلاتِ[1] في الدرّ والمرجانِ ، والحُللِ المنسوجةِ بالعقيانِ ، المقصـورات[2] في قصورِ الملوك ذوي التيجانِ ، وقدِ انتخبكم الوليدُ بنُ عبدِ الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُرباناً ، ورضيكم لملوكِ هذه الجزيـرةِ صهاراً وأختاناً[3] ، ثقةً منه بارتياحكم للطعانِ ، واستماحِكم بمجالدةِ الأبطالِ والفرسانِ ، ليكونَ حظُّهُ منكم ثوابَ اللهِ على إعلاءِ كلمتهِ ، وإظهارِ دينهِ بهذه الجزيرةِ ، وليكـونَ مغنمـها خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم .

واللهُ تعالى وليٌّ إنجادكم على ما يكون لكـم ذكـراً في الدارين .

واعلموا أني أولُ مُجيبٍ إلى ما دعوتُكم إليـه وأني عنـد ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغيةِ القومِ لُذريقَ فقاتِلهُ إنْ شاء اللهُ تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلَكْتُ بعدَه فقد كفيتُكـم أمرَهُ ، ولم يعوزْكم بطلٌ عاقلٌ تُسندون إليه أمورَكـم ، وإن

---

(١) الرافلات : جمع رافلة ، وهي المرأة تجر ثوبها ، وتتبختر في مشيتها .

(٢) المقصورات : المحبوسات ، قال تعالى : (حورٌ مقصوراتٌ في الخيام) ، أي محبوسات .

(٣) الأختان : جمع ختن وهو زوج الأخت أو البنت ، يعني الصهر .

هَلَكْتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هــذه ، واحملــوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرةِ بقتلهِ ، فإنهم بعده يُخذَلون .

وأنهى طارقٌ خطبتَهُ ، ثم جلس ساكناً وادعاً ثابتَ الجنـان، هادئ الأعصاب ، مطمئن النفسِ ، مرتاحَ الضمــيرِ ، قريــر العين، إذ أنه كان صادق اللهجةِ ، خالصَ النيةِ في كلِ كلمـــةٍ يتلفظُ بها ، ويُخاطبُ قومَهُ ، وهو يحثُّهم على الجهادِ في ســبيلِ الله تعالى .

فاستجاب له جندُهُ ، ووعدوه خيراً ، وتفاءلوا معه بــالفتح والظفرِ إنْ شاء اللهُ تعالى ، وهبَّتْ عليهم رياحُ الأمل والنصـر ، وقالوا له : قد قطعنا الآمال مِمّا يخالفُ ما عزمت عليه ، فقـــم إلى عدوّك وعدوّنا ، فإننا معك وبين يديك . وكأنهم يقولــون له كما قالتِ الصحابةُ لرسولِ الله ﷺ يوم بدر:(امضِ لما أراك اللهُ فنحن معك ، والله لا نقولُ لك كما قالتْ بنــو إســرائيل لموسى : إذهب أنتَ وربكَ فقاتلا إنّا ههنا قاعدون) .

ولكن اذهب أنت وربُك فقاتلا إنا معكمـــا مقــاتلون ، فوالذي بعثك بالحقِ لو سِرْتَ بنا إلى بركِ الغمـــادِ[1] لجالدنـــا معك من دونه حتى تبلغه[2].

وقال سعدُ بنُ معاذ : قد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدْنا أنّ ما جئت به هو الحقُ ، وأعطيناكَ على ذلك عهودَنا ومواثيقنا ، على السمعِ والطاعةِ ، فامضِ يارسولَ الله لمـــا أردتَ فنحـــن معكَ ، فوالذي بعثكَ بالحق لو استعرضتَ بنا هـــــذا البحـــرَ فخضتَهُ لخضناهُ معَكَ ، ما تخلّفَ مِنّا رجلٌ واحدٌ ، وما نكـــرهُ أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنّا لصبرٌ في الحربِ ، صُدُقٌ في اللقاء، ولعلَّ الله يريكَ مِنا ما تقرُّبه عينُك ، فسرْ بنا على بركة اللهِ .

التفاؤل بالنصر :

رُوي أنَّ طارقَ بنَ زيادٍ حين نزل بجنودهِ جبلَ طارقٍ ، بَدَأَ بشنِّ بعضِ الغارات ، والقيامَ ببعض الهجماتِ من بـــابِ مـــا يُسمّى باستعراض العضلاتِ . فلقيتْهُ امرأةٌ عجوزٌ مـــن أهـــلِ

---

(١) برك الغماد : موضع بناحية اليمن .

(٢) القائل هو المقداد بن الأسود ﷺ .

الجزيرةِ ودار بينهما حديثٌ طويلٌ ، قالتْ فيه كما يرويه التلمسانيُّ في نفحِ الطيبِ ، ما نصُّهُ :

فقالَتْ له في بعضِ قولِها : إنه كان لها زوجٌ عالمٌ بالحَدثانِ، فكان يحدثُهم عن أمير يدخلُ إلى بلدهم هذا ، ويغلبُ عليه ، ويصفُ من نعتهِ[1] أنه ضخمُ الهامةِ ، فأنتَ كذلك .

ومنها : أنَّ في كتفِهِ الأيسرِ شامةً عليها شعرٌ .

فإنْ كانتْ بكَ هذه العلامَةُ فأنتَ هو .

فكشف طارقٌ ثوبَهُ فإذا بالشامةِ في كتفِهِ على ما ذكرتْهُ العجوزُ ، فاستبشرَ بذلك هو ومَنْ معه .

وذُكرَ عن طارق أنه كان نائماً في المركبِ فرأى في منامِهِ النبيَّ ﷺ ، والخلفاءُ الأربعةُ أصحابه يمشون على الماء حتى مَرُّوا به ، فبشّره النبي ﷺ بالفتحِ ، وأمره بالرفقِ بالمسلمين ، والوفاء بالعهد .

وقيل : إنه لما ركب البحر غلبتْهُ عينه فكان يرى النبيَّ ﷺ وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوفَ ، وتنكبوا

(١) النعت : الصفة .

القسي ، فيقول له رسول الله ﷺ : ياطارق ، تقدم لشـــأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه .

فهب من نومه مستبشرا ، وبشر أصحابه ، وثابت إليـــه نفسه ثقة ببشراه فقويت نفسه ، ولم يشك في الظفر ، فخـــرج من البلد ، واقتحم بسيط البلاد شاناً للغارة [1] .

ولا شك أنها رؤيا صادقة وصالحة ، تؤكد صـــــدق نيـــة طارق رضي الله عنه ، وشفافية نفسه ، وورعه وتقاه ، وإخلاصه لدينـــه وربه ورسول الله ﷺ يقول : لم يبق من النبوة إلا المبشرات .

فقال بعض أصحابه : وما المبشرات يارسول الله ...؟

فقال : الرؤيا الصالحة [2] .

ويقول :(من رآني في المنام فقد رآني حقـــا ولا يتمثـــل الشيطان بي) [3] .

وفي رواية : من رآني في المنام فقد ر آني في اليقظة .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

---

(١) نفح الطيب : ج١ ــ ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ .

(٢ ــ ٣) الحديثان رواهما البخاري .

لقاء الجيشين :

في صبيحة يومِ الأحد لليلتين بقيتا من شهرِ رمضان المبلوكِ من السنةِ الثانيةِ والتسعين للهجرةِ أقبل لُذريقُ بجنوده الذين بلغ عددهم مائةَ ألفٍ من ذوي العددِ والعُدَّة ، وقد جعل على ميمنةِ جيشِهِ واحداً من أولادِ غيطشةَ ، وعلى ميسرتِهِ واحداً آخرَ ، وذلك من تدبيرِ المولى عز وجل ليتمكن أولادُ غيطشةَ من تنفيذ الخطةِ المتفق عليها ، لتكون سبباً من أسباب النصرِ ، وعاملاً مساعداً من عواملِ الفتحِ والظفرِ إنْ شاء الله تعالى .

وأما طارقُ بنُ زيادٍ فقد تقدم بجنودِهِ المؤمنين الذين بلغ عددُهم اثني عشرَ ألفاً ليقابلوا مائة ألفٍ من العجم مجهّزين بالعتادِ والسلاح لنصرةِ الطاغوتِ ، والدفاع عن الباطلِ ، على عكس المسلمين الذين جاؤوا يدافعون عن الحق ، ويقاتلون في سبيلِ الله ، مصداقُ ذلك قولُ الحقِ تبارك وتعالى :

﴿ والذين آمنوا يقاتلون في سبيلِ الله والذين كفروا يقاتلون في سبيلِ الطاغوت فقاتلوا أولياءَ الشيطانِ إنَّ كيدَ الشيطان كان ضعيفاً ﴾[1] .

---

(١) الآية ٧٦ من سورة النساء .

لقد كان اللقاءُ بين الفريقين في موضعٍ يقالُ لـــه : (وادي لكّه) من كورةِ شذونة ، هناك حيـــث تقـــابل الفريقـــان ، وتصاولت الفرسان ، وتبادل الأبطال والشـــجعانُ الضـــربَ والطعانَ ، فتظاهرَ أبناءُ غيطشةَ أو إغطشةَ بالهربِ ، فـــأخلوا مواقعهم وغادروا أرضَ المعركةِ ، وانحازوا إلى جيشِ طـــارق ، فكانتْ تلك الخطةُ من أقوى أسباب النصرِ والفتحِ ، نصـــر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين ، نصراً عظيماً ، وفتح عليهم فتحاً مبينـــاً ، وخذل جندَ الشيطان، وأبطلَ كيدَهم ومكرهـــم ، وجعلـــهم يفرّون من أرضِ المعركةِ هاربين متقهقرين يجرون أذيال الخيبـــةِ والخسرانِ ورمى لُذريقُ بنفسهِ في وادي لكّةَ ، وقـــد أثقلتْـــهُ الجراحُ حين رأى جنودَه وأنصارَهُ يهربون أمام المسلمين وقـــد تركوه عرضةً لطعناتِ سيوفهم ورماحهم هـــاربين بأنفســـهم طالبين للنجاةِ ، لذلك وبسبب فشلِهِ الذريعِ ، وهزيمتِهِ المنكـــرة ألقى بنفسهِ في وادي لكّةَ ، فلم يعلم أحدٌ له خبراً ، ولم يجدْ له مكاناً ، واللهُ أعلم .

وقيل : نزل طارقٌ بالمسلمين قريباً من عسكرِ لُذريقَ منسلخ[1] شهرِ رمضانَ سنةَ اثنتين وتسعين ، فوَجَّهَ لُذريقُ علجاً[2] من أصحابه قد عرف نجدَتَهُ ، ووثِقَ ببأسِهِ ليشرفَ على عسكرِ طارقٍ ليتبينَ عددَهم ، ويطلعَ على هيئاتِهِم ومراكبِهِم واستعداداتِهِم ، فأقبل ذلك العلجُ حتى اطَّلعَ على العسكرِ فرآه المسلمون فوثبوا عليه ، فولّى هارباً ، واستطاع أنْ يهربَ منهم ، وفاتهم بسَبْقِ فرسِهِ حتى انتهى إلى لُذريقَ ، فقال له : أتتكَ الصورُ التي كشَفَ لك عنها التابوتُ ، فخذ على نفسكَ ، فقد جاءك منهم مَنْ لا يريدُ إلا الموت ، أو إصابةَ ما تحت قدميكَ ، قد حَرَقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلقِ بها ، وصفُّوا في السهلِ مُوَطِّنين أنفسهم على الثباتِ ، إذ ليس لهم في أرضنا مكانُ مهرب .

فوقع الخوفُ في قلبهِ ، وأُسقِطَ في يده ، وزُلزلَ زلزالاً شديداً ، ولكن ماذا عليه أن يصنعَ ...؟ لابُدَّ له من مواجهةِ الموقفِ الذي وضع نفسَهُ فيه حفاظاً منه على ماءِ وجههِ ،

---

(١) منسلخ الشهر : نهايته .

(٢) العلج : الرجل الضخم ، أو القائد من قوادِ الأعاجمِ .

وصوناً لكرامتهِ أمام جنوده الذين يعلمون عنه الجرأةَ والشجاعةَ والبطولةَ الفائقةَ ، ومقارعةَ الفرسان ، فما أتعسَ القائدَ حين تبدو عليه علاماتُ الجبنِ والجزعِ ، أو تظهرُ على وجههِ أماراتُ الخوفِ والهلعِ ....!!

وما أقبحَ شكلَهُ حين يفرُّ من عدوهِ أمام جنوده ، ويغادرُ المعركة هارباً وهم ينظرون إليه ...!! إنه أمرٌ صعبٌ جداً ، وسيئٌ جداً، وعسيرٌ جداً وحرجٌ . لا يمكن تصورهُ من رجلٍ فارسٍ وداهيةٍ مثلِ لُذريقَ فضلاً عن وقوعِهِ وحدوثِهِ ...!!

والتقى الفريقان في وادي لكّةَ قربَ البحيرةِ ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، تظاهر فيه أبناء غيطشةَ بالهربِ ، وكانوا يتخذون موقعاً استراتيجياً هاماً في تشكيل الجيشِ إذ أنَّ أحدَهما يقودُ الميمنةَ ، والآخرَ يقودُ الميسرةَ ، ولم يبقَ إلا القلبُ الذي لم يستطِعِ الثباتَ إلا قليلاً وفيه لُذريقُ الذي سرعان ما هرب فتبعه الجنودُ الذين يشكلون القلبَ ، واستمرَّتْ هزيمتهم ، وأكثر المسلمون فيهم القتلَ ، وخفي أثرُ لُذريقَ فلا يدري أحدٌ عنه شيئاً ، إلا أنَّ المسلمين وجدوا فرسَهُ الأشهبَ الذي فُقِدَ وهو راكبُهُ ، وعليه سرجٌ له من ذهبٍ ، مكلّلٌ بالياقوت والزبرجدِ،

ووجدوا أحدَ خفَّيهِ وكان من ذهبٍ ، مكلَّل بالدرِ والياقوتِ وقد ساختْ قوائمُ الفرسِ في طينٍ وحمأة .

وغرق العلجُ ، فثبتَ أحدُ خُفَّيهِ في الطين فأُخذَ ، وخفي الآخرُ، وغاب شخصُ العلجِ ولم يوجدْ حياً ولا ميتاً ... والله أعلمُ بشأنه .

نعم ... لقد هرب أصحابُ لُذريقَ أمام المسلمين ، وخلّفوا وراءهم أموالاً وعتاداً يصعبُ حصرها ، بعد أن قُتِلَ منهم مقتلةٌ عظيمةٌ لا يعرفُ عددهم إلا اللهُ ، وأخذ أصحابُ طارق ماتركه خصومهم وخلّفوه في أرضِ المعركةِ ، أشياءَ كثيرةً ، فكانوا يعرفون الأمراء منهم والاغنياءَ وأبناء الملوكِ بخواتمِ الذهبِ يجدونها في أصابعهم ، ويعرفون مَنْ دونهم من عامةِ الناسِ بخواتمِ الفضةِ ، ويميزون الفقراء والخدم والعبيدَ بخواتمِ النحاسِ ، فجمع طارقٌ تلك الغنائمَ وقسَّمها بين المقاتلين.

وتناقل الناس أنباء المعركةِ الكبرى ، وتسامعوا بالآية العظمى التي أظهرها اللهُ تعالى لعباده المؤمنين ، وفوجئوا بالنصرِ العظيمِ ، والفتحِ المبين الذي أيّدَهم اللهُ به ونصَرَهم على

عدوّهم بكلِ يسرٍ وسهولةٍ رغم تفوقه عليهم بالعددِ والعُـدَّةِ ، نصراً عظيماً مؤزراً أبهرَ المسلمين أنفسهم .

أقبل الناسُ إلى طارقٍ من كلِ جهةٍ يهنئونه بالنصرِ العظيمِ، بعد أن تحملوا أعباءَ السفرِ ، وقطعوا مسافات بعيدةً ، ومضـوا يقطعون البحرَ على كلِ ما قدروا عليه من مركبٍ وغيرِهِ وقـدِ انضمّوا إليه ، ولحقوا به ، ووضعوا أيمانهم في يمينهِ مؤيدين لـه ومناصرين على أن يكونوا له جنوداً صادقين ومخلصين ، هـذا من جهةٍ .

أما من جهةِ أهلِ الأندلس فقد قصدوا عند ذلك الحصـونَ والقلاعَ ، وغادروا منازلهم في السهلِ ، ولحقوا بالجبال فـارين بأنفسهم وأهلهم ، طالبين النجاةَ .

ومضى طارقٌ بجنوده يقطع الأوديةَ ، ويجتـازُ الجبـالَ ، ويفتحُ البلادَ حتى نزل مدينةَ شذونةَ[1] ، فامتنع أهلُها عليـه ، ودخلوا مدينتهم وأغلقوا عليهم أبوابها ، واحتموا فيها .

---

(١) شدونة : مدينة بالأندلس من أعمال إشبيلية .

فضرب طارقٌ الحصارَ وأحكمه عليهم حتى نهكهم وأضرَّهم ، ثم هجم عليهم برجالهِ حتى فتحها عنوةً ، فاضطرُّوا أن ينزلوا على حكمِهِ .

ثم انطلق منها إلى مدينةِ موررور ومنها إلى قرمونةَ ، ومال منها إلى اشبيليةَ فصالحه أهلها على الجزيةِ .

أسرُ العلجِ صاحب إستجةَ وإسلامهُ :

وتابع البطلُ طارقٌ فتحهُ حتى بلغ مدينةَ إسْتجةَ[1] وكانوا في قوة من العتادِ ، ومنعةٍ من الرجالِ لأنَّ الهاربين من جيش لُذريقَ كانوا قد احتموا فيها ، ظانين أنهم ناجون من سيفٍ طارقٍ وجنودِهِ ، لكنهم في هذه المرةِ كانوا شديدي البأسِ ، فقاتلوا بكلِ بسالةٍ وشجاعةٍ لينتقموا لأنفسهم ولما حلَّ بهم من خيبةِ أملٍ ، وهزيمةٍ قبيحةٍ منكرةٍ ، لذلك أكثروا من القتلِ والجراحِ في صفوفِ جيشِ المسلمين .

فلما رأى المسلمون كثرةَ القتلِ والجراحِ فيهم ضاعفوا جهودَهم ، وجددوا همتهم ، وكروا على الاعاجم كرةً شديدةً

(١) إستجة : اسم الكورة بالأندلس على نهر سنجل ، وهي من أعمال قرطبة بينهما عشرة فراسخ .

وشجاعةً حتى نصرهم اللهُ عليهم ، وجعلوهـــم يتفرقــون في الأرض ، والمسلمون يتبعونهم حتى ظفر طارقٌ بـــالعلجِ وهـــو حاكمُ مدينتهم ، وكان مُغْترّاً ، متغطرساً، سيئ الخُلق ، لقيـــه طارقٌ عند النهرِ وهو لا يعرفُهُ ، فوثب عليه طارقٌ وهو في الماء فقهره وتغلّب عليه ، ثم أخذه بقودِهُ إلى المعسكرِ ، فلما أخـــذ يسألهُ ويحققُ معه اعترف له بأنه أميرُ المدينةِ ، فصالحهُ طـــارقٌ على ما أحبَّ ، وضرب عليه الجزيةَ ، وأخلى سبيلَهُ ، فوفى بمـــا عاهَدَ عليه .

ردٌّ على أكاذيبَ :

ولمّا رأى أهلُ الأندلسِ أن طارقاً يوغلُ في البلادِ ويفتحـــها بيسرٍ وسهولةٍ وكانوا يحسبونه راغباً في الغنـــائم يجمعـــها في إغاراته ، أو أنه عبارةٌ عن قاطعِ طريقٍ يسلبُ الناسَ أموالهم بعد أن ينشرَ بينهم الرعبَ والفساد أو أنه قرصانٌ يتحول من جزيرةٍ إلى جزيرةٍ ، وينتقلُ من بلدٍ إلى بلدٍ، ويعبرُ البحارَ والمحيطـــاتَ بحثاً عن صيدٍ ثمينٍ يُمَني به نفسَهُ ، ويشبع به نَهمَهُ بعد أن يقتـــلَ ويخطفَ ، ويحرقٍ ويدمّرَ ، وينشرَ الذعرَ والخـــوفَ والبطـــشَ والوحشيةَ أينما جلسَ ، وحيثما حلَّ ثم يرجعُ من حيثُ أتـــى ،

مخلفاً وراءهُ الويلَ والثبورَ ، والألم والحرمانَ والأرامل واليتــامى والثكالى ، حتى لقد قيل إنه كان يعمدُ إلى التمثيلِ بـــالقتلى ، فيأمرُ بتقطيعِ لحومهِم وطبخِها في القدورِ ثم يـــأمرُ جنـــودَه أنْ يأكلوها أمام أسرى العجم الذين كانوا يحدثون النـــاسَ بعــد إطلاقِ سراحِهِم ، لذلك كان أهلُ الأندلس يخشون منه كثيراً ، فيخلون مدنهم وقراهم ويخرجون خوفاً منه وهرباً من بطشِـــهِ وقسوتهِ .

هكذا كان أعداؤهُ يلفقون عليه الأكـــاذيبَ، ويرمونـــه بالتهم، ويتهمونه بما ليس فيه بقصد الإساءة والتشهيرِ ليـــس لشخصه فحسبُ ، وإنما بقصدِ الإساءة والتشـــهيرِ بالإســـلامِ والمسلمين بشكلٍ عامٍ، ومتى كان المسلمون قساةً ، وقراصنـــةً ، وقُطاع طرقٍ .....!!...؟؟، ومتى كان الإسلامُ يبيحُ لأبنائهِ أن يكونوا كذلك ...؟؟

لم يكن الإسلامُ في يوم من الأيامِ ليرضى لأبنائهِ أن يمثلـــوا بقتلى أعدائهِم فضلاً عن أن يقطعوا لحومَـــهم ، ثم يطبخوهـــا ليأكلوها .

ولم يكنِ الإسلامَ ليرضى لأبنائهِ أن يكونوا قساة أو غـــزاةً أو قراصنةً أو قتلةً أو سفاحين ينشرون الظلم والشرَّ والفســـادَ والعدوانَ حيثما حَلُّوا ، وأينما وُجدوا ...!! سبحانك اللـــهمَّ هذا بهتانٌ عظيمٌ ، إنَّ تاريخنا الإســـلاميَّ المشـــرقَ في فجـــرهِ وضحاهُ ، وصبحِهِ ومساهُ مليءٌ بالصفحاتِ المجيدةِ ، والمـــآثرِ الحميدةِ ، والتوجيهات الساميةِ الرشيدة ، والأقوالِ والأفعـــال والتطبيقاتِ الإنسانيةِ السديدة ، قرآناً وسنةً، قولاً وعملاً ، أمراً ونهياً وتقريراً تدعو إلى الرفـــقِ والرحمـــةِ والإحســـاسِ حـــتى بالأعداءِ، والحيوانِ الأبكمِ ، فكيف يقالُ : إن المسلمين كـــانوا يمثلون بجثثِ القتلى، ويقطعون لحومَـــهم ...الخ...!! ...؟؟ وهمُ الذين التزموا قولَ الحقِ تباركَ وتعالى وهو ينـــهاهمْ عـــن العدوانِ والتمثيلِ ، وذلك بنصِّ قولِهِ تعالى :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثلِ ما عوقبتم به ولئنَ صبرتم لهـــو خيرٌ للصابرين ﴾ [1] ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلـــها فمـــنْ عفـــا وأصلحَ فأجرُهُ على الله إنه لا يحبُّ الظالمين. ولمنِ انتصر بعـــد ظلمِهِ فأولئك ما عليهم مِنْ سبيلٍ . إنما السبيلُ علـــى الذيـــن

---

(١) الآية ١٢٦ من سورة النحل .

يظلمون الناسَ ويبغون في الأرضِ بغيرِ الحقِ أولئك لهم عـــذابٌ أليمٌ . ولمنْ صبرَ وغَفرَ إن ذلك لمنْ عزمِ الأمورِ ﴾ [1] .

﴿ ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلا بالحقِ ومـــــنْ قُتــلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِهِ سلطاناً فلا يُسرِفْ في القتلِ إنه كـــان منصوراً ﴾ [2] .

ليس ما يقولُهُ أعداءُ الإسلامِ إلا صيحةً تائهةً في وادٍ ليـــس لها داعٍ ولا مجيبٌ .

(كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ من أفواهِهم إن يقولون إلا كذباً) [3]

وواقعُ المسلمين وآثارهم وتاريخُهُم وممارساتُهم تشهدُ بصدقــهم وإنسانيتهِم ورقهمِ ورحمتهم باعدائـــهم في حـــالتي الحـــربِ والسلمِ .

---

(1) الآيات ٤٠ ــ ٤٣ من سورة الشورى .

(2) الآية ٣٣ من سورة الإسراء .

(3) الآية ٥ من سورة الكهف .

﴿ يريدون أن يطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم ويأبى اللهُ إلا أنْ يُتمَّ نورَهُ ولو كره الكافرون .هو الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقِ ليظهرَهُ على الدينِ كلّهِ ولو كَرِهَ المشركون ﴾[1].

إنَّ قوى الشرِ والبغي والفسادِ مُمَثَّلةً باليهودِ والصهيونيةِ العالميةِ وراءَ كلِّ ما يثارُ حولَ الإسلامِ والمسلمين ، من تُهمٍ وشبهات وأضاليلَ وأكاذيبَ ليسيئوا إلى الإسلامِ ، ويصرفوا الناسَ عنهُ ، ويشككوهم بعدالتهِ ونزاهتِهِ وإنسانيته منذ بزوغِ فجرهِ إلى يومنا هذا ، إنّ الإسلامَ قمةُ النزاهةِ والعدالةِ والتسامحِ والرحمةِ والإنسانيةِ ، مهما أرجفَ المرجفون ، وتجنى عليه المغرضون، واتَّهمَهُ الأفاكون ، ونسبوا إليه ما ليس فيه زوراً وكذباً وبهتاناً ، إنهم كما قال الشاعرُ :

كنا طِحٍ صخرةً يوماً ليوهنَها فلم يَضرْها وأوهى قرنَهُ الوعلُ

فلما علم أهل الأندلسِ أنَّ طارقاً جاء فاتحاً وليس كما أرجفَ به المرجفون، واتّهموه بالسلبِ والنهبِ والقرصنةِ وقطعِ الطريقِ .

---

(١) الآيتان ٣٢ ــ ٣٣ من سورة التوبة .

جاء ليفتحَ بلادَهم ، وينقذَهم من تسلطِ الطغاة والظلمة والطامعين ، وينشرَ في ربوعها الأمنَ والأمانَ والسلمَ والسلامَ، والعدل والاطمئنانَ .

إنهم حين أدركوا حقيقةَ ما جاء به طارقٌ سُقِطَ في أيديهم، وقذفَ اللهُ الرعبَ في قلوبهم ، وأخذوا يتحولون من السهولِ إلى الجبالِ لَعَلّها تمنعهم من طارقٍ وجنوده ، ورحل ذوو الشأنِ والقوةِ وأصحابُ الثراءِ واليسارِ إلى دارِ مملكتِهم طُليطلةَ ، وهي عاصمتُهم .

أمّا عامةُ الناسِ من أهلِ الأندلس فكانوا يستقبلون جنودَ الفتحِ المسلمين بالترحيبِ والزغاريدِ فرحين مبتهجين مغتبطين ، خاصةً حين لمسوا منهم المعاملةَ الحسنةَ ، ففتحوا لهم قلوبهم ، واستقبلوهم بأحضانهم قبل أنْ تُفتَحَ لهم بلادُهم، ودخلوا في دينِ اللهِ أفواجاً عن قناعةٍ وثقةٍ وإيمانٍ ، والحمد لله رب العالمين.

مقتلُ لُذريقَ :

يروى أنّ نهايةَ لُذريقَ ليستْ كما تقدم من إلقاء نفسِهِ في وادي لكّةَ ، فاختفى ، ولم يعلمْ عنه أحدٌ شيئاً ، وإنما كانت نهايتُهُ أن قُتِلَ بسيفِ طارقِ بنِ زيادٍ .وذلك حين التقى الفريقان

في وادي لكّة ، وانحازَ أولادُ غيطشةَ إلى جيشِ طارقٍ ، وبقـيَ لُذريقُ في قلبِ الجيشِ دون حمايةٍ من الميمنةِ والميسرةِ ، وأبصـرَ طارقاً في أصحابهِ عليهمُ الزَّرَدُ ، وعلى رؤوسهم العمائمُ البيضُ وبأيديهم القسيُّ العربيةُ ، وقد تقلدوا السيوفَ ، وتقلّـدوا الرماح . فلما أبصرَهم لُذَريقُ حلف وقال : إنَّ هذه الصـورَ هي التي رأيتها ببيتِ الحكمةِ ببلدِنا ، ووقع الخوفُ في قلبـهِ ، وأيقنَ بالفشلِ والهزيمةِ ، وأدرك أنه مقتولٌ لا محالـةَ ، فلمـا أبصَرَهُ طارقٌ نادى بأعلى صوتِهِ : هذا طاغيةُ القومِ ...!! هـذا لُذريقُ ...!! وانقضَّ عليه انقضاضَ الصقرِ ، وحمـل عليـه ، وحمل معه جنودُهُ حملةَ رجلٍ واحدٍ ، وأخذوا يوقعون بعدوّهـمُ الطعنَ والقتلَ حتى أثخنوا فيهمُ القتلَ ، وأجبروهم على الهزيمةِ ، ولاسيما حين رأوا انسحابَ أولاد غيطشـةَ بميمنـة الجيـشِ وميسرتِهِ ، وخلصَ طارقٌ إلى لُذَريقَ فضربه بالسيف على رأسهِ فأرداه قتيلاً ، فلما رآه أصحابُهُ مقتولاً ، انسحبوا مـن أرضِ المعركةِ ، وأخذوا في الهربِ ، ولم تقفْ هزيمتهم في موضـعٍ ، والمسلمون المنتصرون يتبعونهم من مكان لآخـرَ ، ويفتحـون البلادَ بلداً ... بلداً ... ومعقلاً .... مَعقلاً . وتسامع النـاسُ

بهذا النصرِ العظيمِ ، وتناقلَهُ الركبانُ حتى بلغ الخبرُ موسى بنَ نُصيرٍ الذي عبر البحرَ ، وانتهى إلى الجزيرةِ لا حقاً بطارقِ بنِ زيادٍ ، فاعتنقَهُ مهنئاً ، وقال له : ياطارقُ ، إنه لن يجازيكَ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ على بلائِكَ بأكثرَ من أنْ يمنحكَ الأندلس، فاستبحْهُ هنيئاً مريئاً .

فقال له طارقٌ : أيها الاميرُ ، واللهِ لا أرجعُ عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحرِ المحيطِ أخوضُ فيه بفرسي .

وقال له يُليانُ : قد فضَضْتَ جيوشَ القومِ ، ورعبوا منك ، فاصمدْ لبيضتهم ، وهؤلاءِ أدلاءُ من أصحابي مهرةٌ ، ففرقْ جيوشَكَ معهم في جهاتِ البلادِ ، واعمِدْ أنتَ إلى طُليطلةَ حيثُ معظمهم ، فاشغلِ القومَ عنِ النظرِ في أمرهم ، والاجتماع إلى أولي أمرِهم .

ولم يزلْ طارقٌ ﷺ ومعه موسى بنُ نُصير يفتحان البلادَ إلى أن انتهيا إلى جلّيقيةَ ، وهي على ساحلِ البحرِ المحيطِ في أقصى بلادِ الأندلسِ .

ومضيا يضربان في الأرضِ ، حتى بلغا الثغرَ الاعلى ، فافتتحا سرَ قُسْطَةَ وأعمالها ، وأوغلا في البلادِ ، لا يمرّان

بموضعٍ إلا خضع لهما ، ولا بلدٍ إلا فُتِحَ عليهما ، وألقى اللهُ الرعبَ في قلوبِ أهلِ تلك البلادِ ، فلم يعارضْهما أحدٌ إلا بطلبِ الصلحِ ، والتسليم وإلقاءِ السلاحِ ، تصديقاً لقولِ النبي ﷺ : (نُصِرْتُ بالرعبِ مسيرةَ شهرٍ) ونصرٌ رسولِ الله ﷺ نصرٌ لأمتِهِ ولجميعِ مَنْ وليَ أمرَ المسلمين من أمتِهِ بصدقٍ وإخلاصٍ وتفانٍ .

فتح قرطبةَ [1]

تقدم معنا أنَّ يُليانَ أشار على طارق أن يفرقَ جيوشَــهُ في أنحاءِ الأندلسِ ، وأن يذهبَ بنفسِهِ لفتحِ طُليطلةَ ، ويوجّهَ غيرَهُ ممن يثقُ بكفاءتِهِ لفتح غيرها من البلدان .

فاقتنع طارقٌ بالفكرةِ وأُعجبَ بها ، فاختار مغيثاً الروميَّ وعيَّنَهُ قائداً لفتحِ قرطبةَ ، وكانتْ من أعظم مدنِ الأندلس وأجملها .

فبعثهُ على رأسِ سبعمائةٍ من المقاتلين ، لأنَّ المسلمين كانوا يطاردون فَلَّ العجم، وبعث جيشاً آخر إلى مالقةَ[1] ، وثالثاً إلى غرناطةَ[3] ، وغيرَهما إلى مختلف الجهات .

وذهب طارقٌ بنفسِهِ إلى طُليطلةَ ، وسيأتي تفصيلُهُ إنْ شاء الله تعالى وانطلق مغيثٌ الروميُّ يقصد قرطبةَ ، حتى انتهى إلى نهرِ شقنوةَ في غيضةِ أرزٍ شامخةٍ ، فكمن فيها ثم بثَّ طلائعَهُ

---

(١) قرطبة : مدينة عظيمة بالأندلس، وتقع في وسط البلاد ، كانت عاصمة الأمويين بالأندلس .

(١) مالقة : مدينة عظيمة بالأندلس على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق .

(٣) غرناطة : مدينة كبيرة بالأندلس ، وهي أقدمها وأعظمها وأحسنها وأحصنها ، يشقّها النهر المعروف بنهر فلزم في القديم ، ومعناها بلسان عجم الأندلس : رُمانة .

لاستطلاعِ الطرق المؤديةِ إلى قرطبةَ ، فرجعوا وقـد أمسـكوا راعيَ غنمٍ ، فسألوه عن قرطبةَ ، فقال لهم : لقد رحل عنـها عظماء أهلها إلى طُليطلةَ ، وبقي فيها أميرُها في أربعمائةٍ مـن الفرسانِ وسألوه عن سورها ، فأخبرهم أنه حصينٌ ، ومرتفـعٌ فوق أرضِها ، ولكنْ فيه ثغرةٌ يصعبُ اختراقُها .

فلما جنَّ عليهم الليلُ توجَّهَ مغيثٌ بجنوده نحو المدينةِ بكـلِ حذرٍ واحتياط ، وكان من فضلِ الله تعالى عليهم أنْ وطَّـأ لهم أسبابَ النصرِ ، بأن أرسل السماء برذاذٍ أخفى وقـع حوافـرِ الخيلِ، فلم يُسمعْ لها صوتٌ ، ثم أقبلوا رويداً فعبروا نهرَ قرطبـةِ تحت جنحِ الظلامِ ، ومن أسبابِ النصرِ أيضاً أنَّ حراسَ المدينـةِ تقاعسوا عن حراسةِ السورِ الحصينِ ، وغفلـوا عـن القيـامِ بمهمتهم بسبب البرد والمطرِ .

في هذه اللحظاتِ الرهيبة وصل مغيثٌ وجنودُه وقد عـبروا النهرَ ، ولم يكنْ بينه وبين السورِ إلا مقدارُ ثلاثين ذراعـاً أو أقلَّ، فحاولوا أنْ يتسوروا السورَ فلم يجدوا متعلَّقاً يمسكون بـه، فرجعوا إلى الراعي الذي دلَّهم على الثغرة ، فذهب معـهم ، فأراهم إياها فإذا بها صعبةُ الاجتيازِ ، إلا أنّ في أسفلها شـجرة

تين ، أفنانُها متشابكةٌ يمكن التعلقُ بها ، فصعِدَ رجلٌ من أشـداءِ المسلمين وشجعائهم حتى صار في أعلاها ، فنـــزع مغيـــثٌ عمامتهُ ورفع إليه طرفها، وجعلوا يستعينون بهـــا ، ويســاعدُ بعضهم بعضاً حتى صار أكثرهم فوق السورِ ، ووقف مغيـــثٌ قربَ السورِ، ثم أصدرَ أوامرَه بالإشارة أن يبدأ رجالهُ بــالهجومِ على الحراسِ ، فانقضوا عليهم كالصقورِ الجارحـــةِ فقتلوهــم وكسروا أقفالَ البابِ ليدخل مغيثٌ وبقيةُ رجالِهِ ، فقتلوا كــلَّ مَنْ رأوه ، حتى سيطروا على الأماكنِ الحساسةِ في المدينةِ ، ولم يزالوا كذلك حتى أحكموا قبضتهم عليها وملكوها عنوةً .

فلما بلغ الملكَ سقوطُ المدينةِ في أيدي المســـلمين بــادرَ بالهربِ مع فرسانِهِ ، وهم نحوٌ من أربعمائةٍ ، فدخلوا كنيســـةً لهم تقعُ غربيَّ المدينةِ ، وتحصنوا بها ، وكان مغيـــثٌ ورجالُـــهُ يطاردونهم فحاصروا الكنيسةَ ثلاثةَ اشهرٍ ، فنفد ما لديهم مـــن طعامٍ ، وضاقوا بالأمر ذرعاً حتى أيقنوا بـــالهلاكِ ، فدعـــاهم مغيثٌ إلى الإسلامِ أو الجزيةِ ، فأبوا عليه ، وبعـــد مناقشـــات ومحاولات استطاعَ ملكُ قرطبةَ أنْ يهربَ ، ويتركَ فرسانه نهبـــاً لسيوف المسلمين ، فعلم مغيثٌ بمهربِهِ وأنـــه قـــاصدٌ مدينـــةَ

طُليطلةَ، فتبعهُ حتى أدركه بقربِ قريةِ تطليرةَ[1] أو طلبيرة ، فاشتدَّ في الهربِ ، فسقط عن فرسِهِ فاندقّتْ عنقُهُ ، فأدركه مغيثٌ فقبض عليه ، وأخذه أسيراً ليذهب به إلى أميرِ المؤمنين الوليد بنِ عبدِ الملك ،وقد قيل : إنه لم يقعْ في الأسرِ من ملوكِ الأندلس غيرُهُ لاستسلام بعضِهم ، وهربِ بعضهم إلى جليقيةَ .

وفي روايةٍ : أنَّ مغيثاً استنزل المعتصمين بالكنيسةِ بعد أسرِ ملكهم ، فعرضَ عليهمُ الإسلامَ أو الجزيةَ فرفضوهما ، فأمر بضربِ أعناقهم جميعاً ، فمن أجلِ ذلك عُرِفَتْ بكنيسةِ الأسرى .

وبقيَ مغيثٌ في قصرِ قرطبةَ حاكماً بعد أنْ أخبرَ سيدَهُ طارقاً بالفتحِ ، وبعثَ إليه بالغنائمِ .

وقد قيل : إنَّ الذي فتح قرطبةَ ، وجرى معه ما جرى هو طارقُ بنُ زيادٍ نفسُهُ لا مُغيثٌ ...والله أعلم .

وأما مَنْ ذهب إلى مالقة فقد فتحها بكل يسرٍ وسهولةٍ ، ثم توجَّهَ بجيشِهِ إلى غرناطةَ فحاصروها مدةً ، ثم فتحوها عنوةً .

---

(١) طلبيرة : مدينة بالاندلس من أعمال طليطلة تقع على نهر تاجه .

فتح تدمير[1]

مدينةُ تُدميرَ : لها شأنٌ كبيرٌ في التحصينِ والمنعةِ ، واسمُ قصبتها أُربونةَ وسُميتْ تُدميرَ نسبةً إلى العلجِ الذي كان يحكمها ، وكان داهية ماكراً، فقاتل المسلمين في وقت الضحى، ثم هرب بجنوده ، فتبعهمُ المسلمون ، فقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ونجا العلجُ ، فلجأ إلى أُربونةَ في عدد يسير من أصحابهِ لا يغنون عنه شيئاً، فأمر النساء أنْ يرتديْنَ زيَّ الرجال، وأن يظهرْنَ على السورِ متشبهاتٍ بالرجالِ ، كأنه يريدُ أنْ يظهرَ للمسلمين قوتَهُ وكثرة جنودِهِ فناداه المسلمون، ودعوه إلى الصلحِ ، فأظهر الميلَ إليه ، فنزل إليهم بعد أن طلب منهم الأمانَ ، فقابلهم على أنه رسولٌ لا حاكمٌ ، فصالحهم على أهلِ بلدِهِ ، ثم على نفسهِ وتوثَّقَ منهم ، فلما تمَّ الصلحُ عَرَّفهم بنفسهِ ، واعتذر إليهم مما فعل وعلّله بالإبقاء على قومه حقناً للدماء ومحافظة على الأنفس ثم أخذهم بالوفاء بعهدِهِ ، وأدخلَهُمُ المدينةَ ، فلم يجدوا فيها إلا النساءَ والأطفالَ

(١) تدمير : كورة بالأندلس تقع شرقي قرطبة بينهما سبعة أيام للراكب .

فأدركوا أنه خدعهم ، وندموا على الذي أعطوه من العـــهدِ ؛ لكنهم راجعوا أنفسهم ومضوا على عهدِهِم ، وكان الوفـــاءُ والمحافظةُ على العهدِ شأنَهم وعادتَهم ، وتجنَّبتْ كورةُ تُدمـــير الحربَ وإراقةَ الدماءِ بتدبيرِ تُدميرَ حاكمها ، وصارتْ كلُّـــها صلحاً ليس فيها عنوةٌ .

وكتب المسلمون إلى أميرهم طارق ﷺ يخبرونـــه بـــالفتحِ والظفرِ ، ومضى معظمهم إلى طُليطلةَ ليُشاركوا طارقاً بفتحِها.

فتح طُليطلة

كان طارقٌ حين وجَّه الرجالَ لفتحِ بلـــدانِ الأندلـــسِ ، ذهب بنفسهِ إلى مدينةِ طُليطلةَ ، وهي عاصمةُ الاندلسِ كلّـــها ودار ملكِ القوطِ ، فلما بلغها ألفاها[1] خاليةً قد فرَّ عنها أهلُها ولجؤوا إلى مدينةٍ خلف الجبلِ ، فخلّفَ فيها رجـــالاً مـــن أصحابهِ، ومضى خلف مَنْ فرَّ من أهل طُليطلةَ ، فسلك واديـــاً يقالُ له : وادي الحجارةِ ، ثم استقبلَ الجبلَ فقطعه من فجٍ حـــتى بلغ مدينةَ المائدةِ ، وهي التي ينسبُها بعضهم إلى سليمان عليـــه السلامُ، وقد قيل في وصفها : بأنها خضراءُ ، مصنوعـــةٌ مـــن زبرجدٍ ، وأطرافها وأرجلُها منها ، لا تنفصلُ عنها فهي كلُّـــها جزءٌ واحدٌ ، وكان لها ثلاثمائةٍ وخمسٌ وستون رجـــلاً ... والله أعلم .

ثم مضى طارقٌ يقطعُ الســـهولَ والهضـــابَ ، والأوديـــةَ والجبالَ حتى انتهى إلى المدينة التي تحصن بها الهـــاربون مـــن طُليطلةَ ، وكانت خلف الجبلِ ، فدخلها و لم يلقَ فيها مقاومةً ،

---

(١) ألفاها : وجدها .

فأصاب بها حلُيّاً وأموالاً وغنائمَ كثيرةً ، ومضى يتابعُ ضربَهُ في الأرضِ فاقتحم أرضَ جليقيةَ[1] ، ومنها إلى مدينة اســـتُرقةَ[2] فدخلها ، ودوّخ أهلها ، وأصاب فيــها مغـانم كثـيرةً ، ثم انصرف قافلاً إلى طُليطلةَ ، وفي ذلك قال بعضهم مخلداً هـــذه الأحداث الجسامَ ، والفتوحاتِ العظامِ :

ركبنـا سـفيناً بالمجـاز مقــيَّراً ... عسى أنْ يكونَ اللهُ مِنا قدِ اشترى[3]

نفوسـاً وأمـوالاً وأهـلاً بجنـةٍ ... إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسـرا

ولسنا نبالي كيف سـالت نفوسُـنا ... إذا نحن أدركنا الذي كان أجـدرا

(١) جلّيقية : تقع قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الاندلس في أقصاه من جهة الغرب .

(٢) أسترقة : مدينة في أرض جليقية المذكورة

(٣) المقيّر : المطلي بالقار وهو الزفت . والمجاز : هو بحرُ المجاز المعروف بالزقاق .

فتح إشبيلية[1]

لَمّا بلغ الأميرَ موسى بنَ نُصيرٍ انتصاراتُ طارقِ بنِ زيادٍ الساحقةُ ، وفتوحاتُهُ العظيمةُ ، وإسلامٌ كثيرٍ من أهلِ الأندلسِ ، عقد العزمِ على التهيؤ إلى المسيرِ إليه ليشاركَهُ النصرَ والفتحَ .

وفي شهرِ رمضانَ المباركِ سنةَ ثلاث وتسعين دخل موسى بنُ نصير الأندلس من الموضعِ المنسوبِ إليه المعروفِ الآن بجبلِ موسى فاحتلَّ الجزيرةَ الخضراءَ وقال : ماكنتُ لأسلكَ طريقَ طارقٍ ، ولا أقفوَ أثرهُ .

فقال له أصحابُ يُليانَ ، وهم أدلاؤه على الطريقِ : نحن نسلكُ بك طريقاً هو أشرفُ من طريقِهِ وندلُّكَ على مدائنَ هي أشدُّ خطراً ، وأعظمُ خطباً ، وأوسعُ غُنماً من مدائنِهِ ، لم تُفتحْ بعدُ ، يفتحها اللهُ عليك إنْ شاء اللهُ تعالى فأشرق وجهُهُ بالبشرِ ، وامتلأ قلبُهُ بالسرورِ ، ووافقهم فرحاً مغتبطاً لأنَّ فتح طارق قدْغمّهُ لكونهِ كان يطمعُ بذلك الفتحِ حتى يصبحَ له يدٌ ومكانةٌ عند الخليفةِ الوليدِ بنِ عبدِ الملك .

---

(١) إشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس وتسمى أيضاً مدينة حمص ، تقع غربي قرطبة على بعد ثلاثين فرسخاً .

ومضى موسى مع أصحاب يُليانَ سالكاً جانبَ ساحلِ شَذُونةَ[1] ، فافتتحها عنوةً ، ثم سار إلى مدينةِ قرْمونةَ ، وهي أحصن بلادِ الاندلسِ وأمنعها ، ومن الصعوبةِ بمكان دخولها بحصارٍ أو قتالٍ ، فاستطاع موسى أن يدخلَها بحيلةٍ قام بها أصحابُ يُليانَ الذين تظاهروا لحراسِها أنهم هاربون من الغزاةِ المسلمين الذين يطاردونهم وقد قصدوا مدينتهم ليحتموا بها ، ففتحوا لهمُ البابَ ففاجأهم موسى بخيلِهِ وفرسانِهِ ، وأوقعوا بالحراسِ حتى أنهوهم ، وملكوا المدينةَ ، وتابع موسى طريقَهُ منتصراً فاتحاً ، فتوجَّهَ إلى جارتِها إشبيليةَ ، وهي أعظمُ مدائنِ الأندلسِ شاناً ، وأعجبُها بنياناً ، وأكثرُها آثاراً ، وأجملُها طبيعةً ومناخاً، وكانتْ دارَ الملكِ قبل القوطيين ، فلما غلب القوطيون على ملكِ الأندلس حولوا العاصمةَ إلى طُلَيطلةَ ، وبقيتْ إشبيليةُ مركزَ أهل العلمِ ورجالِ الدينِ .

وحين هاجمها موسى بنُ نُصيرٍ امتنعَتْ عليه أشهراً، ثم فتحها اللهُ عليه بعد قتالٍ طويلٍ ومريرٍ ، فهرب رؤساؤها

(١) شذونة : مدينة بالأندلس من أعمال إشبيلية .

وزعماؤها إلى مدينةِ باجةَ[1] فخلفَ فيها رجالاً ثم مضى منها إلى لَقُنْتَ ، وذكر بعضُ الباحثين أنه قرأها لا كانتوس وتعني عين كانتوس ... والله أعلم .

ومنها إلى مدينةِ ماردة ، وكانت أيضاً دارَ مملكةٍ لبعضِ ملوكِ الأندلسِ سالفَ الدهرِ ، وهي ذاتُ عِزٍّ ومنعةٍ ، وفيها آثارٌ وقصورٌ ومصانعُ وكنائسُ جليلةُ القدرِ ، فائقةُ الوصفِ ، فحاصرَها موسى، وكان في أهلها مَنَعَةٌ شديدةٌ، وبأسٌ عظيمٌ استطاعوا أن ينالوا من المسلمين ، وينتصروا عليهم في بعضِ المواجهاتِ فعمد المسلمون إلى دبّابةٍ ، وجعلوا يضربون بها بعضَ الأبراجِ فتهاوى السورُ عليهم فثار جنودُ العجمِ عليهم فقتلوا منهم عدداً ، سوى مَنْ قُتِلَ تحت الدبابةِ فسُمِّيَ ذلك الموضعُ برجَ الشهداءِ ، ثم دعاهم موسى إلى السلم ، فاختاروا منهم أهلَ الرأي والحلمِ ، فقدموا عليه ، فإذا هو أبيضُ الرأسِ واللحيةِ ، فلم يصلوا معه إلى اتفاق ، ثم دخلوا عليه قبل يومِ الفطرِ بيومٍ ، فإذا به قد خضَبَ رأسَهُ ولحيتَهُ بالحناءِ .وعاودوه يومَ الفطرِ ، فرأوَهُ أسودَ شعرِ الرأسِ واللحيةِ ، فازدادوا منه

---

(١) باجه : مدينة بإفريقية كثيرة المياه والأنهار تقع على جبل يقال له : عين الشمس .

تعجباً ، وكان القومُ لا يعرفون الخضابَ ولا استعمالَهُ ، فلما رجعوا إلى قومِهم قالوا لهم : إنّا نقاتلُ أنبياءَ يتخلّقون كيف شاؤوا ، ويتصورون في كلِ صورة أحَبُّوا ...!! كان ملكُهم شيخاً ، فقد صار شاباً ، فإنا نرى أن نصالحَهُ، ونعطيَهُ ما يريدُ، فما لنا به طاقةٌ ، فاذعنوا عند ذلك لأمرِهِ ، وتمّ الصلحُ ، وفتحوا المدينةَ ليدخلَها المسلمون يومَ عيدِ الفطرِ سنةَ أربعٍ وتسعين ، والحمد لله رب العالمين .

نقضُ أهلِ إشبيلية العهدَ وفتحها مرةً أخرى :

حين غادر موسى بنُ نُصيرٍ إشبيلية إلى لا كانتوس ، أو لَفنتَ ، نقضَ أهلها عهدَهم ، وثاروا على مَنْ خلَفَهُ موسى عليهم ، واجتمعوا مع أهلِ باجةَ ولبلبةَ على المسلمين فقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً ، فهرب مَنْ بقي منهم ولحِقَ بالأمير موسى بماردَةَ ، فأخبروه بما فعل أهلُ إشبيليةَ من نقضِ العهدِ ، وقتلِ بعضِ المسلمين فوجَّهَ إليها ابنَهُ عبدَ العزيز بنَ موسى في جيشٍ لا يستطيعون الصمود أمامَهُ ، فاقتحم إشبيلية ففتحها ، وقتل مَنْ فيها مِنْ المتمردين ، ثم توجَّهَ إلى لبلبةَ ففتحها ، واستقامتِ الأمور ، ورفرف لواءُ الإسلامِ على ربوعِ تلك

البلدانِ ، واستتبَّ الأمنُ في جميعِ أقطارها وأقام عبدُ العزيز بنُ موسى بإشبيليةَ ، وتوجَّهَ موسى إلى طُليطلةَ للقاءِ طارقٍ هناك .

عودةُ المُلْكِ إلى أبناء غيطشةَ :

استقرَّ المسلمون بالاندلسِ ، واستتبَّ الأمن في جميعِ أنحائها، وفرغوا من الفتحِ بعد أن بسطوا نفوذهم على أنحائها، فكان لا بُدَّ لطارق بعد هذا أنْ يفي بما وعد به أبناء غيطشةَ الذين اشترطوا عليه إنْ نصَرَهُ اللهُ ، وفتح عليه الأندلس أنْ يردَّ إليهم ضياعَ أبيهم ، وكانت ثلاثةَ آلافِ ضيعةٍ ، وهي التي سُمِّيتْ بعد ذلك (صفايا الملوك) فأجابهم طارقٌ إلى ذلك ، وعاقدهم عليه ، واتفقوا معه أن يخذلوا لُذَريقَ في أول لقاء ، وينضموا إلى جيشِ طارقٍ للقتالِ تحت لوائهِ لتخذيلِ لُذريقَ ، وكسر شوكتهِ.

فلما التقى الفريقان في وادي لكَّةَ انحاز أبناءُ غيطشةَ بما معهم من رجالٍ وكانوا يشكلون ميمنةَ الجيشِ وميسرتَهُ كما تقدم ، وانتقلوا إلى جيشِ طارقٍ ، فكان ذلك من أقوى أسبابِ النصرِ ، يضافُ إليه تحالفُ يُليانَ مع المسلمين ، وبشرى رسولِ اللهِ ﷺ لطارقٍ في المنام، فكانت هذه الأسباب مجتمعةً أقوى

الأسباب التي هيّأها اللهُ تعالى لنصرِ عباده المؤمنــين ، وذلـك تقديرُ العزيزِ العليمِ : ﴿ إنا لننصُرُ رسلنا والذين آمنوا في الحيـاةِ الدنيا ويومَ يقوم الأشهادُ﴾[1] صدق الله العظيم .

فهذا وعدٌ من الله تبارك وتعالى ثابتٌ لا يتغيرُ، ولا يتخلّفُ في كلِ زمانٍ إذا حقّقَ المسلمون شروطَ النصرِ وأسـبابَهُ والآن وقدِ التزم أبناءُ غيطشةَ بما عاهدوا عليه طارقاً ، وطبقّوه عمليـاً فلا بُدَّ لطارق إذن أنْ يفيَ بوعدِهِ ، ويعيدَ إليهم ملكَ أبيـهم وقد نَصَرَهُ اللهُ تعالى .

جاؤوا إليه بعد أن فرغَ من القتالِ ، فذكروا له ما اتفقـوا معه عليه ، فقالوا له : أنتَ أميرُ نفسِكَ أم فوقكَ أميرٌ ؟

قال : بل على رأسي أميرٌ ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيمٌ.

فاستأذنوه باللحاقِ بموسى بنِ نُصير ، وطلبوا منه الكتـابَ إليه بشأنهم معه وما أعطاهم به من عهدٍ ، ففعل .

فلما قدِموا على موسى بنِ نصيرٍ دفعوا إليه كتابَ طـارقٍ وفيه العهدُ منه لاستعادةِ حقهم ، فأرسلهم موسـى إلى أمـيرِ المؤمنين الوليدِ بنِ عبدِ الملـكِ الـذي اسـتقبلهم في قصـرِهِ

---

(١) الآية ٥١ من سورة غافر .

وأكرمَهم، وأحسنَ قراهم ، ثم أنفذلهم عهدَ طارقٍ في أمـــلاك أبيهم ، وجعل لكلّ واحدٍ منهم سجلاً ، وجعل لهم من المكانـةِ أنْ لا يقوموا لداخلٍ عليهم .

فرجعوا إلى الأندلس ، واستردّوا ضياعَ أبيهم جميعـــها ، واقتسموها على اتفاقٍ بينهم ، لكلِ واحدٍ ألفُ ضيعةٍ .

فأما كبيرُهم وهو : الموندو فقد كان نصيبُـــهُ في غـــربي الأندلسِ ، ولذلك سكن مدينةَ إشبيليةَ .

وأما الأوسط وهو : أردبست بن غيطشةَ ، ويعرَّبُ الاسم أرطباش أو أرطبان ، فقد كان نصيبُهُ في وســـطِ الأندلـــس ، فسكن من أجلِها مدينةَ قرطبةَ .

وأما الثالث وهو الأصغر ، ويقال له وقلة وهـــو تعريـــبُ أخيلا ، فقد كان نصيبُهُ شرقيَّ الأندلس من جهـــةِ الثغـــر ، فسكن من أجلِها مدينةَ طُلَيطلةَ ، واستمروا على ذلك في صدرِ الدولةِ الإسلامية ينعمون بالخيرِ والأمن في ظلّ دولةِ الإســـلام التي أنصفتهم ، وأعادَتْ إليهم حقوقهم وحافظتْ لهم عليـــها ، إلى أنْ مات كبيرُهم الموندو ، وخلَفَ ابنتهُ ســـارةَ المعروفـــةَ بالقوطيةِ ، وابنين صغيران ، فاستغلّ عمُّهمُ الأوسطُ أرطبـــاش

صغرَهم وضعفهم عن حمايةِ أملاك أبيهم، ووضع يــدَهُ علــى ضياعِهم وضَمَّها إلى ضياعِهِ ، وذلك في خلافةِ هشامِ بنِ عبــدِ الملكِ ، فأنشاتْ سارةُ بنتُ الموندو مركباً وسافرتْ من إشبيلية مع أخويها الصغيرين إلى الشام لترفَعَ أمرَها إلى الخليفةِ هشــامِ ابنِ عبدِ الملك بدمشقَ وتشكوَ ظُلامتَها من عمّها ، واعتــداءه على حقِها وحقِ أخويها الصَّغيرين ، فلما دخلتْ عليه رفعــتْ إليه كتابَ العهدِ المنعقدِ لأبيها وأخويه على الخليفةِ الوليدِ بــنِ عبدِ الملكِ .

فأُعجبَ هشامٌ بعقلِها وحزمها وقوة شخصيتها ، وكتــب إلى حنظلةَ بنِ صفوانٍ عاملِهِ بإفريقية يأمُرُهُ بإنصافها وإعـــادة حقِها من عمها أرطباش ، وإمضائها وأخويها على سنةِ الميراثِ فيما كان في يدِ أبيها مِمّا قاسمَ فيه أخويه .

فردّ حنظلةُ بنُ صفوان إليها حقها ، ثم زوّجَــها الخليفــةُ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ من عيسى بنِ مزاحمٍ ، ثم قَدِمَ معـــها إلى الأندلسِ ، وقام مدافعاً لها عن حقِها ، فنال بها نعمةً عظيمـــةً ، وولِدَ له منها ولداه إبراهيم وإسحاقَ اللذان أدركـــا الشــرفَ

المؤَّثَلَ ، والسيادة والرئاسة بإشبيلية بنسبتهما إلى أمهما سـارة القوطيةِ .

هذا ... وكانت سارةُ القوطيةُ حين وَفَدَتْ على الخليفـةِ هشامٍ رأتْ عنده حفيدَهُ عبدَ الرحمنِ بـنَ معاويـةَ المعـروفَ بالداخلِ ، فلما قدم عبدُ الرحمن الداخل إلى الأندلس حاكمـاً دخلتْ عليه فعرفها ، واعترف بذمامِها وأكرمها إكراماً زائـداً، وأذن لها في الدخول عليه متى شاءَتْ ، ومتى قَدِمَتْ إلى قرطبةَ، وهكذا يكونُ الوفاءُ بالعهدِ ، وهكذا يكون الحفـاظُ علـى الودِ...!!

مائدة سليمان عليه السلام :

قال ابنُ حيّانَ : وهذه المائدةُ المنوَّهُ باسمِـها المنسـوبةُ إلى سليمانَ النبيّ عليه الصلاةُ والسلامُ لم تكنْ له فيما يزعـمُ رواةُ العجمِ ، وإنما أصلُها أنَّ العجمَ في أيامِ ملكِهِم ، كـان أهـلُ الحسنةِ منهم إذا مات أحدُهم أوصى بمالٍ للكنـائسِ ، فـإذا اجتمع عندهم ذلك المالُ صاغوا منه الآلاتِ الضخمـةَ مـن الموائدِ والكراسي وأشباهِها من الذهـبِ والفضـةِ ، تحمـلُ الشمامسةُ والقسوسُ فوقها مصاحفَ الاناجيلِ إذا أُبـرزتْ في

أيام المناسكِ ، ويضعونها على المذابــح في الأعيــادِ للمباهــاةِ بزينتها، فكانت تلك المائدةُ بطليطلةَ مِمّا صُنعَ في هذه السبيلِ ، وتأنّقت الأملاكُ في تفخيمها ، يزيدُ الآخرُ منهم فيــها علــى الأول ، حتى بَرزتْ على جميعِ ما اتُخذَ من تلك الآلاتِ وطــار الذكرُ مطارَدهُ منها ، وكانتْ مصوغةً من خالصِ الذهــــبِ ، مرَصّعةً بفاخرِ الدُّرِّ والياقوتِ والزمُرُّدِ ، لم ترَ الأعينُ مثلــــها ، وبولِغَ في تفخيمها من أجلِ دارِ المملكةِ وأنــــه لا ينبغــي أن تكون بموضعِ آلةُ جمالٍ ، أو متاعُ مباهاةٍ إلا دون مــا يكــونُ فيها.

وكانتُ توضعُ على مذبحِ كنيســـةِ طُليطلـــةَ ، فأصابهـــا المسلمون هناك، وطار النبأُ الفخمُ عنها [1] .

وقال ابنُ خلكانَ عنها : إنَّ المائدةَ كانتْ مصنوعةً مــــن الذهبِ والفضةِ ، وكان عليها طوقُ لؤلؤ وطوقُ ياقوتٍ وطوقُ زمُرُّدٍ ، وكلُّها مُكللةَ بالجواهرِ .... واللهُ أعلم [2].

بيت الحكمةِ : الحديث عن الحكمة طويلٌ ذكره صــاحب نفح الطيب مطوّلاً ، وسأذكره نقلاً عنه من آخره مختصراً:

(١ ـــ ٢) نفح لطيب ج١ ص ٢٧٢ ـــ ٢٧٣ .

تقدم معنا أن غيطشةَ ملكَ الأندلس لمامات ترك ثلاثة أولاد صغاراً لم يصلحوا للملكِ ، فقامَ لُذريقَ وكان من قوَّادِ غيطشّةَ فانتزع الملك من أبناءِ غيطشةَ عن طريقِ الغصب ، ولم يكُنْ من أبناء الملوكِ ، ولا بصحيحِ النسبِ في القوطِ ، فتولّى أمر الحكمِ في الأندلس ، قال التلمسانيٌّ :

وكانتْ طُليطلةَ دارَ الملكِ بالأندلسِ حينئذٍ ، وكان بها بيتٌ مغلق متحامي الفتحِ على الأيامِ ، عليه عدةٌ من الأقفالِ يلزمُهُ قومٌ من ثقاتِ القوطِ قد وكلّوا به لئلا يُفتحَ ، وقد عَهِدَ الأولُ في ذلك إلى الآخرِ ، فكلما قعد منهم ملكٌ أتاه الموكّلون بالبيتِ فأخذوا منه قفلاً ، وجعلوه على ذلك الباب من غيرِ أن يزيلوا قفلَ مَنْ تقدَّمَهُ ، فلما قعد لُذَريقُ هذا ، وكان فهماً يقظاً ذا فكرٍ أتاه الحراسُ يسألونه أن يُقفلَ على البابِ ، فقال لهم : لا أفعلُ ، أو أعلمَ ما فيه ، ولا بُدَّ لي من فتحِهِ .

فقالوا له : أيها الملكُ، إنه لم يفعل هذا أحد ممن قبلك ، وتناهوا عن فتحِهِ ...!!

فلم يلتفتْ إليهم ، ومشى إلى البيتِ ، فأعظمتْ ذلك العجمُ ، وضرِعَ إليه أكابرُهم في الكفِّ ، فلم يفعل ، وظنَّ انه

بيتُ مال ، ففضّ الأقفال عنه ودخلَ ، فأصابه فارغاً لا شـــيء فيه ، إلا تابوتاً عليه قفلٌ فأمر بفتحِهِ يحسبُ أنَّ مضمونَهُ يقنعُـهُ نفاسةً ،فالفاه أيضاً فارغاً، ليس فيه إلا شُقّةٌ مدرَجَةٌ قد صُوِرَتْ فيها صورُ العربِ عليهم العمائمُ وتحتهمُ الخيـــولُ العِــرابُ ، متقلّدِي السيوفَ ، متنكّبِي القسِيّ ، رافعي الراياتِ على الرماحِ وفي أعلاها أسطرٌ مكتوبةٌ بالعجميةِ ، فقرئتْ فإذا فيها :

إذا كُسِرَت الأقفالُ عن هذا البيتِ ، وفُتحَ هذا التــابوتُ ، فظهر ما فيه من هذه الصورِ ، فإنَّ هذه الأمة المصورةَ في هـــذه الشُّقَّةِ تدخلُ الأندلسَ فتغلبُ عليها وتملكها .

فوَجمَ لُذريقُ وندم على ما فعل ، وعَظُمَ غمُّه وغمُّ العجـمِ بذلك ، وأمرَ بردِ الأقفال ، وإقرارِ الحرسِ على حالِهم وأخذ في تدبيرِ الملك ، وذُهَلَ عمّا أنذر به ، وتحقق انقراضَ دولتـــهم ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى سمع أنَّ جيشاً وصل من المشرقِ جــهَّزَه ملك العربِ ليفتحَ بلادَ الأندلس .

فهذا هو بيتُ الحكمةِ الذي أشار إليه لُذريقُ ، والله اعلـمُ بحقيقةِ الأمرِ في ذلك كلّه ... انتهى من نفخِ الطيبِ بتصرفٍ .

ولقد فسَّرَ ذلك للُذَريقَ أحدُ قوادِهِ في بدءِ القتالِ مع المسلمين حيث قال له أتَتْكَ الصورُ التي كشفَ لك عنها التابوتُ ، فخُذْ على نفسكَ فقد جاءك منهم مَنْ لا يريدُ إلا الموتَ ، أو إصابةَ ماتحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياساً لانفسهم من التعلقِ بها ، وصَفّوا في السهلِ مُوَطنين أنفسهم على الثباتِ ، إذ ليس لهم في أرضنا مكانُ مهرب وكان كما تحدثَ ، وحصل له ما خشي منه وما توقَّعَ ، فلقد جاء المسلمون ، ودخلوا جزيرةَ الأندلسِ ، وفتحوها ونشروا فيها نورَ الإسلامِ وهديَهُ وتعاليمَهُ ، وقرأوا القرآن ، ونشروه بين أهلِها فاستضاءَتْ بنورِهِ كلُّ بقعةٍ من بقاعِ الأندلس ، وتأثَّرَ الناسُ به فانعكسَ نورُهُ على قلوبِهم ، وسطع على أفئدتِهم فاستنارتْ به واهتدَتْ بهديه بعد ظلامٍ دامسٍ تراكم عليها وجعلها مظلمةً قاتمةً ، لولا أنْ هبَّتْ عليها نفحاتُ الإسلام في ذلك الفتحِ العظيمِ ، فأضاء جوانبها ، وشرحَ صدورَها ، وأحيا قلوبَها ، (أو مَنْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناسِ كمنْ مثلُهُ في الظلماتِ ليس بخارجٍ منها)[1] .

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .

أحلامُ موسى بنِ نصير :

ولقد كان حلُمُ موسى بنِ نُصيرٍ كبيراً فكان يحلُمُ بالتوسع في قلبِ أوروبا حتى يسيطرَ على فرنسا ، ثم يتجه شرقاً حتى يصل إلى القسطنطينيةِ ، وبذلك يكونُ قد حقق حُلُماً من أحلامِ العربِ المسلمين بالاستيلاءِ على عاصمةِ البيزنطيين ولكنَّ الخليفةَ الوليدَ بنَ عبدِ الملكَ استدعاه إلى دمشقَ قبل أنْ يبدأ بتنفيذ خطتِهِ .

وجاء في نفحِ الطيبِ في الحديث عن أحلامِ موسى بنِ نُصير بالفتحِ والتوغلِ في قلبِ أوروبا قال : فبينما هو يعمل في ذلك ويعدُّ له أتاه مغيثٌ الروميُّ رسولُ الوليدِ بنِ عبدِ الملك ومولاه يأمره بالخروجِ عنِ الأندلس ، والإضرابِ عنِ التوغلِ فيها ، ويأخذه بالقفولِ إليه ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادتِهِ، إذ لم يكنْ في الأندلس بلدٌ لم تدخُلْهُ العربُ إلى وقتِهِ ذلك غيرُ جلّيقيةَ ، فكان شديدَ الحرصِ على اقتحامها ، فلاطفَ موسى مغيثاً رسولَ الخليفةِ ، وسألهُ إنظارَهُ إلى أنْ ينفذَ عزمَهُ في الدخولِ إليها والمسيرِ معه في البلادِ أياماً ، ويكونَ شريكَهُ في الأجرِ والغنيمةِ .

ففعل مغيثٌ ، ومشى معه حتى بلغ المفازة ، فافتتحَ حصن بارو، وحصن لُكَّ [1] ، فأقام هناك، وبثّ السرايا حتى بلغوا صخرةَ بِلاي[2] على البحرِ الأخضر فلم تبقَ كنيسةٌ إلا هُدِمَتْ، ولا ناقوسٌ إلا كُسِرَ ، وأطاعت الاعاجمُ فلاذوا بالسلم وبذلِ الجزيةِ ، وسكَنَتِ العربُ المفاوزَ ، وكان العربُ والبربرُ كلما مرّ قومٌ منهم بموضعٍ استحسنوه حَطوا به ونزلوه قاطنين ، فاتّسَعَ نطاقُ الإسلامِ بأرضِ الأندلس ، وخُذلَ الشركُ.

وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهورِ ، وقوةِ الأملِ إذ قدِمَ عليه رسولٌ آخرُ من الخليفةِ يُكنى أبا نصرٍ ، أردفَ به الوليد مغيثاً لمّا استبطأ موسى في القفولِ ، وكتبَ إليه يوبخُهُ ويأمرُهُ بالخروجِ [3] .

فاضطُرَّ موسى أن يذعنَ لأمرِ الخليفةِ فترك الجهادَ ، وغادر حصنَ لُكَّ بجليقيةَ ، وكانت إحدى أحلامِهِ وأمانيه ، لقد

---

(١) حصن لُكَّ : يسمى اليوم لوكوس .

(٢) أقصى نقطة من اشتريس على المحيط الاطلسي .

(٣)نفح الطيب ج١ ــ ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ .

خرج منها وهو متلهفٌ على الجهادِ في سبيلِ اللهِ ، والتوسُّعِ في أرضِ الأعاجم ، أسيفٌ على ما أصابه من تثبيطِ العزمِ ، وفتورِ الهمةِ ، والقعود عنِ الجهاد ، وكان يحلُمُ باختراق المزيد من البلاد ، واقتحام الأرضِ الكبيرةِ حتى يتصلَ فتحُهُ بالقسطنطينيةِ كما تقدم ، ومنها إلى الشامِ كطريقِ عودةٍ آملاً بذلك أنْ يتخذَ طريقاً مهيعاً[1] يسلكهُ أهلُ الأندلس في مسيرِهم ومجيئهم من المشرقِ وإليه عن طريقِ البرِ لا يركبون بحراً .

ولكنَّ الأوامر الصارمةَ التي أَتَتْهُ من القيادة العليا بددَّدتْ أحلامَهُ ، وقضَتْ على آمالهِ ، وجعلتْ خطَّتَهُ تذوبُ وتتلاشى، ثم تموتُ مع الأيام .

وذكر في نفحِ الطيبِ سبباً آخر عن قعودِ موسى بنِ نصيرٍ عن الاستمرارِ في اختراق البلادِ فقال :

وقيل : إنه أوغلَ في أرضِ الفرنجةِ حتى انتهى إلى مفازة كبيرة ، وأرضٍ سهلةٍ ذات آثار ، فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالنقرِ كتابةٌ عربيةٌ ، قُرِئتْ ، فإذا

---

(١) المهيع : الطريق البين .

هي : يابني إسماعيلَ ، انتهيتم فارجعوا، وإن سألتم لمَ ترجعون...؟ فاعلموا أنكم ترجعون ليضربَ بعضُكم رقابَ بعضٍ .

فهاله ذلك ، وقال : ماكُتِبَ هذا إلا لمعنى كبيرٍ ، فشاورَ أصحابه في الإعراضِ عنه ، وجوازِهِ إلى ماوراءَه فاختلفوا فيه ، فأخذ برأي جمهورهم ، وانصرفَ بالناسِ ، وقد أشرفوا على قطعِ البلادِ ، وتقصّي[1] الغايةِ[2] ...؟ والله أعلم .

القادةُ العرب يُحيون أحلامَ موسى بنِ نُصَير :

وظلّتْ فكرةُ اختراق البلادِ ، واقتحام الأهوالِ والبحارِ تراودُ قادة المسلمين في الأندلس ، فهذا السمحُ بنُ مالكٍ أحدُ ولاةِ الأندلس أحَبَّ أن يقومَ بتحقيقِ حلمِ موسى بنِ نُصير ، فانطلق بجيوشهِ فاحتل إقليماً واسعاً يمتدُّ من البرانسِ غرباً إلى مصبِ نهر الرون شرقاً ، ويتصلُ بما يُعرفُ اليومَ باسْمِ الريفيرا الإيطاليةِ ، وعاصمتها أريونةُ ، وقدِ استولى السّمح على العاصمةِ بعد حصارٍ دام شهراً .

---

(١) التقصي : التتبع .

(٢) نفح الطيب ج١ ـــ ص ـــ ٢٧٧ .

وهذا عنبسةُ بن سُحيمٍ الكلبيُّ الذي خَلَفَ السمحَ بنَ مالكٍ يواصلُ توغُّلَهُ في جنوبِ فرنسا حتى وصل إلى مدينةِ ليون و لم يجدْ في طريقِهِ مقاومةً تُذكَرُ إلا عند مدينةِ سانس على بعد ثلاثين كيلو متراً فقط من باريسَ عاصمة فرنسا ، ولولا وقوعُ الخلافِ بين العربِ والبربرِ، وانبعاثُ روحِ العصبيةِ في الأندلسِ لتابعَ عنبسةُ فتوحاتِهِ وبسط نفوذهُ على فرنسا كلّها ، ولكنه اضطرَّ إلى التراجعِ ليقضي على الخلافِ القائمِ بين العربِ والبربرِ ، ولخشيتِهِ إن تابعَ توغُّلَهُ ألّا يستطيع تأمينَ خطوطِ العودة .

وهذا عبدُ الرحمنِ الغافقيُّ الذي لم يكدْ يتولى إمارة الأندلس حتى أعلن دعوتَهُ للجهادِ في سبيلِ الله ، فألتفّ حولَهُ جيشٌ عظيمٌ بلغ سبعين ألفاً ، وقيل : مائة ألفٍ فعبر به جبالَ البرانس ، ومضى يكتسحُ ما في طريقِهِ من مدن وحصون ومعاقلَ ، لا يقفُ له جيشٌ إلا حَصَدَه ، ولا يعترضهُ أحدٌ إلاّ أبادهُ ، حتى بلغ مدينةَ تور فاستولى عليها ، ثم تقدم إلى بواتييه على بعد سبعين كيلو متراً من جنوبِ باريسَ ، واستمرت المعركةُ بينه وبين شارل مارتل ثلاثةَ أيامٍ ، وقيل : سبعةَ أيامٍ

فتكاثر عليه الأعداء ، فسقط شهيداً مجيداً بعد أن أبلى بـــلاءً حسناً في تلك المعركةِ التي يقالُ لها : معركةُ بلاطِ الشـــهداءِ ، لكثرةِ الشهداءِ المسلمين الذين سقطوا فيها .

وفي ذلك يقولُ المؤرخُ المشهورُ جيبون : لو انتصر العــربُ في تور بواتييه لتُليَ القرآنُ وفُسرَ في اكسفورد وكمبردج .

وهذا عقبةُ بنُ نافعٍ البطلُ المشهورُ ، يقفُ علـــى ســـاحلِ المحيطِ الأطلسي ممتطياً صهوةَ جواده ، ممتشقاً سيفَهُ ويقـــولُ : اللهم فاشهدْ أني لو كنتُ أعلمُ أنَّ وراءَ هذا البحرِ أرضاً لخضتُهُ غازياً في سبيلِكَ .

فرضي اللهُ عن هؤلاءِ الرجالِ العظماءِ ، المخلصين لدينهم، الأوفياء لعقيدتهم المجاهدين في سبيلِ اللهِ حَقَّ الجـــهادِ بصـــدقٍ وإخلاصٍ وأمانةٍ ، لا لمطمعٍ ، ولا لشهرةٍ ، ولا لزعامـــةٍ ، ولاً لنيلِ حظوةٍ ولا غنيمةٍ ، بل لنشرِ نورِ الإسلامِ ، ورفعِ لوائـــهِ عالياً خفاقاً في مشرقِ الأرضِ ومغربِها ، ولتنعَمَ البشريةُ كلـــها بعدالةِ الإسلام ورحمتِهِ وسماحتِهِ وإنسانيتهِ (قد جاءكم مِـــنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ يهدي بهِ اللهُ منِ اتَّبَعَ رضوانهَ سُبُلَ الســـلامِ

ويخرُجُهم من الظلماتِ إلى النورِ بإذنهِ ويهديــهم إلى صــراطٍ مستقيمٍ)[1] صدق اللهُ العظيم) .

خاتمةٌ بالتعريفِ بموسى بنِ نُصيرٍ :

هو الاميرُ موسى بنُ نُصير اللخميُّ ، ولدَ سنةَ تسع عشــرةَ في خلافةِ عمرَ بنِ الخطاب ﷺ .

قيل : إن أباه سُبيَ من جبلِ الخليل من الشــامِ في خلافــةِ الصديقِ ﷺ ، وكان اسمُهُ نصراً فصغرَ فصار نُصَيراً .

كان ﷺ ذا رأي وتدبيرٍ ، وعلمٍ وحزمٍ ، وفــنٍ وخــبرةٍ بالحربِ ، وَلِيَ إمرةَ بلادِ إفريقيةَ سنةَ تسع وسبعين ، فـــافتتح بلاداً واسعةً ، وغنم غنائم كثيرةً ، وتراكمتِ الأموالُ بين يديه تلالاً ، من الذهبِ واللآلئ والجواهرِ النفسية مالا يُحصى .

وعلى يديه أسلم أهلُ المغرب، والأندلس ، وبَــثَّ فيــهمُ الدين والقرآنَ والعلمَ ، وجعل رايةَ الإسلامِ ترفـــرفُ فــوقَ ربوعِهما ، وتصدحُ في أرجائهما كلمةُ لتوحيــدِ ، واختفــتْ منهما مظاهرُ عبادةِ غيرِ اللهِ تعالى .

---

(١) الآيتان ١٥ ـــ ١٦ من سورة المائدة .

وذلك لصدقِهِ وإخلاصِهِ لدينهِ ، وجهادهِ وتفانيهِ في سبيلِ الله تعالى وله من الكرامات الشيءُ الكثيرُ ، نذكرُ منها دعاءَ الاستسقاءِ الذي دعاه بإفريقيةَ حين قحط الناسُ ، فاجاب اللهُ دعاءهُ .

قال ابنُ كثير : وقدِ استسقى موسى بنُ نصيرٍ بالناسِ في سنةِ ثلاث وتسعين حين أقحطوا بإفريقيةَ ، فأمرهُم بصيامِ ثلاثةِ أيامٍ قبل الاستسقاء ثم خرج بين الناسِ ، وميَّزَ أهلَ الذمةِ عنِ المسلمين ، وفرَّق بين البهائم وأولادِها ، ثم أمر بارتفاعِ الضجيجِ والبكاءِ ، وهو يدعو اللهَ تعالى حتى انتصفَ النهارُ ، ثم نزل فقيل له : ألا دعوتَ لأميرِ المؤمنين ؟

فقال : هذا موطنٌ لا يُذكرُ فيه إلا اللهُ عز وجل .[1] .

فسقاهم اللهُ تعالى ، وهذه كرامةٌ ظاهرةٌ لموسى بنِ نُصيرٍ رحمه الله .

معاقبة سليمان بن عبد الملك لموسى :

وذكر بعضهم أنّ موسى بنَ نُصيرٍ قدِمَ دمشقَ ومعه أموالٌ كثيرةٌ ، وغنائمُ لا تُحصى ، وكان الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ مريضاً،

(١) البداية والنهاية ج٩ ــ ص ١٧٣ .

فكتب سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ، وكان وليّ العهدِ ، يأمر موسى بالتربصِ في مجيئهِ ، رجاء أن يموتَ الوليدُ قبل قدوم موسى ، فيقدمُ موسى في أولِ خلافةِ سليمانَ بتلك الغنائمِ الكثيرةِ التي لم يرَ الناسُ و لم يسمعوا بمثلها فيعظمُ بذلك مقامُ سليمانَ عند الناس، فأبى موسى التربُّصَ ، ومنعهُ دينُهُ وخلقُهُ من ذلك ، فأغذَّ السيرَ حتى قدم دمشقَ والوليدُ حيٌّ، فسلَّمَ له الأخماس والغنائمَ والتحفَ والذخائرَ ، فلم يمكثِ الوليدُ إلا يسيراً حتى مات ، وتسلَّم الخلافةَ أخوه سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ الذي حقد على موسى ، وأضمرَ له الشرَّ والانتقام لأنه خالف أمرَهُ ، وتعجَّلَ القدومَ على الوليد .

فأهان موسى ، وأقامَهُ تحتَ وطأةِ حرّ الشمس حتى أشرف على الموت ، وأغرمَهُ أموالاً كثيرةً كان بعضُهم قد وشى إلى سليمانَ أن موسى أخذها .

وأرسل إلى أهلِ الأندلسِ بقتلِ عبدِ العزيزِ بنِ موسى الذي استخلَفَهُ أبوه عليها حين قدِمَ إلى دمشقَ ، فضبط أمورَها ، وأحكم سلطانَها ، وسَدَّ ثغورَها ، وافتتحَ مدائنَ كثيرةً مما كان قد بقي على أبيهِ موسى منها ، فكان من خيرِ الولاةِ وأعدلِهم

وأورعِهم ، فلم تطلْ مدةُ حكمِهِ لوثوبِ بعضِ الجندِ عليه وقتلِهِ تنفيذاً لأمرِ الخليفةِ سليمان بنِ عبدِ الملكِ ، وذلك عَقِبَ سنةِ خمسٍ وتسعين لأمورٍ نقم منها سليمان عليه وعلى أبيه ، ونسي فضلهما وجهادهما وما قدماه للإسلامِ وللدولةِ الإسلاميةِ من عزٍ ومجدٍ وجاهٍ وسلطانٍ .

موسى بنُ نُصيرٍ يستعينُ بيزيدَ بنِ المهلبِ :

وصل موسى بنُ نُصيرٍ إلى حالةٍ سيئةٍ من التردي بسبب نقمةِ الخليفةِ سليمانَ عليه فذهب إلى يزيد بن المهلب يستعين به ليشفع له عند سليمان ليخفف عنه العقابَ ، ويرفعَ عنه الذلَّ والهوانَ لمكانةِ يزيدَ عند سليمانَ ، فقال له يزيدُ : أريدُ أن أسألكَ فأصْغِ إليَّ .

قال موسى : سَلْ عمّا بدالك .

فقال يزيد : لم أزلْ أسمعُ عنك أنكَ من أعقلِ الناسِ ، وأعرفِهِم بمكايد الحروبِ ومداراةِ الدنيا ، فقلْ لي : كيف حصلتَ في يدِ هذا الرجلِ بعد ما ملكتَ الأندلس ، وألقيتَ بينك وبين هؤلاءِ القومِ البحرَ الزّخّارَ ، وتيقّنتَ بُعْدَ المرامِ واستصعابَهُ ، واستخلصْتَ بلاداً أنتَ اخترعتها ، و استملكتَ

رجالاً لا يعرفون غيرَ خيرِكَ وشَرِّكَ ، وحصل في يـــدِك مـــن الذخائرِ والأموال والمعاقلِ والرجالِ مالو أظهرْتَ به الامتناعَ ما ألقيت عنقَكَ في يدِ مَنْ لا يرحمُكَ .

ثم إنكَ علمتَ أنَّ سليمانَ وليُّ عهدٍ ، وأنَّهُ المُـــوَلى بعـــد أخيه، وقد أشرفَ أخوه على الهلاكِ لا محالةَ ، وبعـــد ذلـــك خالفتَهُ...!!

وألقيتَ بيدِكَ إلى التهلكةِ ، وأحقدْتَ مالكِكَ ومملوكـــكَ [1]، وما رضِى هذا الرجلُ عنكَ إلا بعيدٌ ، ولكنْ لا آلو جهداً .

فقال موسى : يا بن الكرامِ ، ليس هذا وقتَ تعديدٍ ، أمـــا سمعتَ (إذا جاء الحَيَنُ ، غطى على العين) ...؟

فقال : ما قصدتُ بما قلتُ لك تعديداً ولا تبكيتاً ، وإنمـــا قصدتُ تلقيحَ العقلِ ، وتنبيهَ الرأي ، وأنْ أرى ما عندك .

فقال موسى : أما رأيتَ الهُدْهُدَ يرى الماءَ تحت الأرضَ عن بُعدٍ ، ويقعُ في الفخِ وهو بمرأى عينِهِ ...؟

ثم كلَّمَ فيه سليمانَ ، واستشفعَ له عنده ، فكـــان مـــن جوابِهِ: إنه قدِ اشتملَ رأسُهُ بما تمكَّنَ له من الظهورِ ، وانقيـــادِ

---

(١) يريد بالمالك سليمان بن عبد الملك ، وبالمملوك طارق بن زياد .

الجمهورِ ، والتحكمِ في الأموال على مالا يمحوه إلا السيفُ ، ولكنْ قد وهبتُ لك دَمَهُ ، وأنا بعد ذلك غيرُ رافعٍ عنه العذابَ حتى يردَّ ما غلّ من مالِ اللهِ .

نهاية بطل الأندلس :

ومع ذلك لم يقتنعْ سليمان ببراءةِ موسى ، مما وشى إليه الوشاةُ والمبغضون ، وأوغروا صدرهُ باتهامِهِ أنه غلَّ من الغنائم ، وأخذ منها مالا يحِلُّ له ، ولم تخمدْ نارُ حقدِهِ عليه ، ولم يصفحْ عنه ، وآلتْ حالُهُ إلى أسوأ حال ، حتى اضطُّرَ أنْ يطوفَ بين أحياءِ العربِ لعلَه يجدُ مَنْ يساعدُهُ بما يفكُّ به نفسَهُ من الخليفةِ سليمانَ ، ويفي ما عليه من غرم يُنسبَ إليه جوراً وظلماً .

يقولُ أحدُ غلمانهِ ممن بقي على وفائِهِ له في حالِ الفقرِ والضياعِ والتشرُّدِ : لقد رأيتُنا نطوفُ مع الأميرِ موسى ابنِ نُصير على أحياء العربِ ، فواحدٌ يجيئنا ، وآخرُ يحتجبُ عنّا ، ولربما دفع إلينا على جهةِ الرحمةِ الدرهمَ والدرهمين فيفرحُ الأمير بذلك ليدفعَهُ إلى الموكَّلين به ، فيخففون عنه من العذابِ.

ولقد رأيتُنا أيامَ الفتوحِ العظامِ بالأندلسِ نأخذُ السلوب والغنائمَ من قصورِ النصارى ، فنفصلُ منها ما يكونُ من الذهبِ وغيرِ ذلك ونرمي به ، ولا نأخذُ إلا الدُّرَّ الفاخرَ ... فسبحانَ الذي بيده العزُّ والذُّلُّ، والغنى والفقرُ الذي يقولُ في كتابِهِ العزيزِ: (كلَّ يومٍ هو في شأنٍ) [1] وتزدادُ الأمور سوءاً وتردياً بالأمير المظلومِ ، حتى أصبحَ الناسُ يتبرمون منه ، ويتنكرون لفضلِهِ وهو الذي أغدقَ عليهم ، وغمرهم بالعطايا والإحسانِ منهم أحدُ غلمانِهِ وقد تحمَّلَ معه الشدَّةَ والجوعَ والفقرَ والتشردَ وقال أبو ذؤيبٍ الهذليّ :

والدهرُ لا يبقى على حدَثانِهِ ... في رأسِ شاهقةٍ أعزُّ مُمَنَّعُ

وقال آخرُ:

لا تأمَنَنَّ من الزمانِ تقلُّباً ... إنَّ الزمانَ بأهلِهِ يتقلَّبُ

ولقد أراني والليوثُ تخافُني ... فأخافني من بعدِ ذاكَ الثعلبُ

حَسْبُ الكريمِ مذلَّةً ومهانةً ... أنْ لا يزالُ إلى لئيمٍ يطلبُ

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الرحمن .

وقال آخر:

هي الدنيا تقـــولُ بمـلء فيـــها حذارِ حذار من بطشي وفتكـــي

فـــلا يغرُرْكـــمُ مـــني ابتســـامٌ فقولي مضحكٌ والفعـــلُ مبكـــي

هذا ... وتزدادُ الأمورُ سوءاً وتردّياً ...الخ .

ويتخلّى عنه غلامه هذا ، ويُسلِمَهُ للقهرِ والذلِ وهـــو في أشدّ الظروفِ قسوةً ، وأكثرها حاجةً للعونِ والمســاعدةِ ، أو على الأقلّ مؤانسةً ولو على سبيل العطفِ والصدقةِ .

لقد عزم غلامُهُ أن يتخلى عنه وهو بوادي القرى ، وكـان في أسوأ حال، فشعر موسى بذلك ، فقال له بلهجـــةٍ تجعـلُ الصخرَ الأصمَّ يرقُّ له ، ويعطفُ عليه : يافلانُ ، أتسـلمُني في هذه الحالةِ ...؟

فقال له من شدةِ ما كان فيه من الضجرِ : قـد أسـلمكَ خالقُكَ وما لكُكَ الذي هو أرحمُ الراحمين .

فانفجرَتْ عينا موسى بالبكاء ، وجعل يرفعُهما إلى السماء باكياً خاضعاً مهينماً بشفتيه ، ولسانُ حالِهِ يقولُ : يـارب ، إنْ لم يكنْ بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي وكأني به يقولُ مبتهلاً إلى اللهِ بلسانهِ ، متوجهاً إليه بقلبهِ :

اللهمَّ ياصريخَ المستصرخين ، ويامُغيثَ المستغيثين ، ويامفرجَ كربِ المكروبين ، قد ترى مكاني ، وتعلمُ حالي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري .

فلمّا جفَّ معينُ الرحمةِ من الأرض ، وأقفرَت الأرضُ من العاطفةِ ، وضنَّ الناسُ عليه بالعون والمساعدة ، وتنكّرَ له مَنْ كان بالأمسِ يحنو عليه ، ويجعلُهُ أميراً يملك القصورَ والمزارعَ ، والجواريَ والخدمَ ، ونسيَ ماكان يغدقُ عليه من العطاءِ ، ويجعلُ المالَ بين يديه تلالاً ، أصبح الآن يتأفّفُ منه ، ولا يعترفُ ولو بجزءٍ يسيرٍ من حسنِ صنيعِهِ ، ولو تفضُّلاً .

في هذه اللحظاتِ الدقيقةِ والقاسيةِ والحرجةِ هبَّتْ عليه من السماء نسماتُ الرحمةِ والشفقةِ بعد أن أقفرتْ من الأرضِ ، وذكرهُ الملأ الأعلى ، فجاء ملَكُ الموتِ لينتزعَ الروحَ الطاهرةَ من الجسدِ المتعبِ المثقلِ بالألمِ والعذابِ والتشردِ ، ثم ليرتفعَ بها إلى جوارِ ربها راضيةً مرضيةً .

فلم تمضِ تلك الليلةُ حتى قضى البطلُ المظلومُ نحبَهُ مغادراً الحياةَ القاسيةَ التي لم تنصِفْهُ ، ولم تسعِفْهُ ، وأضاعتْ جهدَهُ

وتفانيهُ وإخلاصَهُ لدينهِ وأمتهِ، وما قدم من مجدٍ، وعزٍّ وسلطانٍ أضحى تائهاً ضائعاً في عالمِ النسيان .

لقد كان البطلُ المنسيُّ عربياً فَصيحاً ، يملك ثقافةً غنيةً ، وعلماً واسعاً ، وبلاغةً عظيمةً ، يبدو ذلك واضحاً في خطابهِ المتقدمِ مع يزيدَ بنِ المهلبِ ، ولقد روي عنه أنه كتب إلى الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ فيما هالَه من فتوحِ الاندلسِ وغنائمِها : إنها ليسَتِ الفتوحَ، ولكنها الحشْرُ .

وقد روي أنَّ منازعةً جرَت بينه وبين عبدِ الله بنِ يزيدَ بنِ أُسيدَ بمحضرِ الخليفةِ عبدِ الملك بنِ مروانَ ألجأتْهُ إلى أنْ قال فيه شعراً ، منه :

حاربتُ غيرَ سؤومٍ في مطاولةٍ ... لو نازع الحفلَ لم ينزعْ إلى حَصَرِ

إنَّ مَنْ كان هذا شأنُهُ ، وتلك مكانتَهُ ، وهو الذي دَوَّخ القوطَ وفتح بلادَهم ، وجاءَتْ إليه الدنيا تجرُّ أذيالها ، فلم ينظرْ إليها ، ولم يتأثرْ بها ، ولم يضعفْ أمامها، يموتُ وهو من أفقرِ الناسِ وأحوجِهِم وأذلِّهِم ، يموتُ وحيداً بوادي القرى ، سائلاً مَنْ كان نازلاً به ، معرضاً عنه كلُ مَنْ استغاثَ به ، لم يجدْ مَنْ ينصفُهُ ويحسنُ إليه ...!!

فسبحان مَنْ ينصفُ خلقَهُ ، ولا يضيعُ عنده مثقالُ ذرةٍ ، القائلُ :(وما ربُّك بظلامٍ للعبيد)[1] .

(إنَّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرة وإنْ تكُ حسنةً يضاعِفْها ويؤتِ من لدنْهُ أجراً عظيماً)[2] صدق الله العظيم .

(ونضعُ الموازينَ القسطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً وإن كان مثقالَ حبةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[3] صدق الله العظيم .

تمتِ الرسالةُ والحمد لله رب العالمين

وإلى اللقاء مع معركةٍ أخرى من معاركَ عربيةٍ وإسلاميةٍ خالدة .والحمد لله بدءاً وختاماً ، وصلى اللهُ على سيدنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ وسلم ، صلاة كاملةً ، وسلاماً تاماً إلى يومِ الدينِ . سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون . وسلامٌ على المرسلين والحمدُ لله ربِ العالمين .

---

(١) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء

(٣) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

الفهـــرس

الموضـــوع	رقم الصفحة

معارك عربية خالدة

١١

معركة نهاوند
مع
فتح خراسان

إعداد
عبد القادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية ـ حلب ـ خلف الفندق السياحي

ص.ب : 78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(معركة نهاوند)

(تمهيد)

معركةُ نهاوندَ من المعاركِ الإسلاميةِ الخـــالدةِ ، فهي تُعتَبرُ بحقٍ مفخرةً من مفاخرِ الإســــلامِ ، و فتحـــاً مبيناً من فتوحاتِهِ العظيمةِ .

لم تكنْ معركةُ نهاوندَ أســـطورةً مـــن أســـاطيرِ الفرسِ ، لا حكايةً من حكاياتِ ألفِ ليلةٍ و ليلــــةٍ ، ولا قصةً من قصصِ رستمَ ، و لا من رواياتِ اسفنديار ولم تكنْ ضرباً من الخرافةِ و الوهمِ ، و لا لغزاً من الألغازِ.

و لم تقعْ مصادفةً ، و لم تحدثْ عفوَ الخـــاطرِ ، بل لقد كانت حقيقةً واقعةً شِـــهَدتْها الدنيـــا ذاتَ يـــومٍ ، ووقفَتْ تحدقُ بعينيها ، و تصغي بأذنيها ، و قد أخذتـــها الدهشةُ والاستغرابُ كأنها لا تكادُ تصدقُ ما ترى و مـــا تسمعُ .

لقد كانت كغيرِها من المعاركِ الإسلاميةِ الخالدةِ، والفتوحاتِ العظيمةِ .

لقد مُهّدَ لها الجوُّ ، و عُبِـــدَتْ لـــها الطريـــقُ ، وحدثَتْ بتخطيطٍ مسبقٍ ، و تحضـــيرٍ دقيـــق ، لتكـــون استمراراً لما قبلها ، و استكمالاً للفتحِ الإسلامي العظيـــمِ الذي غايتُهُ إخراجُ العبادِ من عبادةِ العبادِ ، إلى عبـــادةِ اللهِ الواحدِ القهارِ ، وليكونَ دينُ اللهِ هو السائد ، وشرعُهُ هو الحاكم ، مع ملاحظةِ أمرين هامَّين .

الأول : أنَّ الإسلامَ لم يكنْ أبداً يدعو إلى إراقـــةِ الدماءِ و قتلِ الأطفالِ و الأبرياءِ ، و لم يأمرْ أبنـــاءه أنْ يكونوا لصوصاً أو قراصنةً أو قطاعَ طرقٍ إنما أمرهـــم أن يدافعوا عن أنفسِهِم و دينهِم ، **(و قاتلوا في ســـبيلِ اللهِ الذيـــن يقـــاتلونكم و لا تعتـــدوا إنَّ اللهَ لا يحـــبُّ المعتدين)**[1]

ما كان الإسلامُ يوماً حريصـــاً علـــى إراقـــةِ دمِ الإنسانِ و هـــو الـــذي جاء ليكرمَهُ ، و يأخذَ بيدِهِ إلى

(١)الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

خيري الدنيا و الآخرةِ و سعادتِهما : (**قد جاءكم من اللهِ نورٌ و كتابٌ مبينٌ . يهدي به اللهُ منِ اتَّبَعَ رضوانَهُ سُبُلَ السلامِ ويخرجُهمْ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ بإذنِهِ ويَهديهم إلى صراطٍ مستقيم**) [1]

و رسولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم هو الصورةُ الصادقةُ و الكاملةُ للإنسانِ المسلمِ ، و النموذجُ الحقُ للإسلامِ ، و هو نبيُّ الرحمةِ و البرِ و الشفقةِ و الإنسانيةِ بالناسِ جميعاً ، و مَنْ مِنّا لا يعرفُ مَواقفه و تصرفاتِهِ التي تترجمُ لنا ذلك ...!!

و مَنْ لا يعرفُ وصاياه ووصايا خلفائهِ لأمراء الجندِ وقادةِ الجيوش بالتزامِ آداب الجهادِ ، و عدمِ الاعتداءِ على الشيوخِ و النساءِ و الأطفال و العُزّلِ من السلاحِ ...!!...؟؟

الأمر الثاني :

أنَّ الإسلامَ لا يكرِهُ أحداً على الدخولِ فيه ، والقاعدةُ فيه قولُ اللهِ تبارك و تعالى :

---

(١)الآيتان ١٥-١٦ من سورة المائدة .

(لا إكراهَ في الدينِ قد تبيَّنَ الرشدُ من الغي) (١)

كما بيَّنَ اللهُ تعالى وظيفةَ النبي صلى الله عليه وسلم و الدعاةِ من بعدِهِ بأنها تنحصرُ في التبليغِ والتذكيرِ، و في ذلك يقولُ اللهُ تعالى :(**فذكِّر إنما أنت مذكرٌ . لست عليهم بمسيطرٍ**)(٢) ذلك أن الإيمانَ أمرٌ قلبيٌّ و من المستحيلِ التأثيرُ في وجدانِ الإنسانِ و عقلِهِ و قلبِهِ بالقوةِ و الإكراهِ ، من أجلِ هذا كان النبيُّ صلى **الله عليه و سلم في جميعِ مراحلِ دعوتِهِ و أساليبِها يدعو إلى اللهِ** بالحكمةِ و الموعظةِ الحسنةِ ، و لم يكرِهْ أحداً على اتّباعِهِ و الدخولِ في دينِهِ ، فكان نتيجةَ هذه السياسةِ الحكيمةِ أن دخل الناسُ في دينِ اللهِ أفواجاً عن **إيمانٍ وقناعةٍ، و أصبحوا دعاةَ حقٍ و هُداة خيرٍ نشروا** تعاليمَ الإسلامِ و نورَهُ و هديه في كلِ بقاعِ **الأرضِ** ، فَفُتِحَتْ لهم قلوبُ العبادِ قبل أن تفتَحَ لهمُ البلادُ، وأصبحوا كما تحدث عنهمُ القرآنُ .

---

(١)الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٢)الآيتان ٢١-٢٢ من سورة الغاشية .

(خيرَ أمةٍ أخرجَتْ للناسِ) [1] و لعل هذا هو السرُّ في سرعةِ الفتوحاتِ الإسلاميةِ، واستجابةِ الناسِ لدعوةِ الإسلامِ ، و الدخولِ فيه ، و التفاعلِ معه .

حريةٌ صادقةٌ ، و مساواةٌ إنسانيةٌ نبيلةٌ ، و تسامحٌ كريمٌ ، و أدبٌ رفيعٌ ، و خلقٌ عظيمٌ يغمُرُ حتى الأعداءَ، ورحمةٌ واسعةٌ تشملُ الجميعَ .

فلا عجبَ إذن أن يقبلَ الناسُ على الإسلامِ، ويدخلوا فيه أفواجاً ، ثم تشهَدُ الدنيا بأسرِها منهم نوابغَ في العلمِ ، وآياتٍ في العدلِ ، و معجزاتٍ في الإيمانِ، ومضربَ المثلِ في الرحمةِ و الرأفةِ و التسامحِ والإنسانيةِ ، و محطَّ أنظارِ العالمِ كلِهِ في جميعِ أنواعِ العلومِ و المعارفِ.

---

(١)الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

معركة نهاوند

أسبابُها ــ سيرُ أحداثِها ــ نتائجها

أولاً : أسبابُها .

معركةُ نهاوندَ كغيرِها من المعـــاركِ الإســلاميةِ الخالدةِ لم تقعْ فجأةً ، و لم تحدثْ عفوَ الخاطرِ ، بل هي استمرارٌ لما قبلها من معاركَ ، و تكملةٌ لحلقاتِ سلســلةٍ كبيرةٍ جرَتْ أحداثُها في بـــلادِ الفــرسِ بينـــهم و بيـــن المسلمين .

فقد تتابعتِ الأنباءُ إلى أميرِ المؤمنين عمرَ رضي اللهُ عنه أن يزدجردَ ملكَ الفرسِ جمع فرسانَهُ و أمـــراءَ جيشِهِ، و جعل يؤنبهم على تخاذلِـــهِم و فرارِهـــم أمـــام المسلمين في كلِ موقعةٍ و مشهدٍ ، و كتب إلى عمالِهِ في الأهوازِ وغيرِها من بلادِ فارسَ ، فجمعوا له جيشاً كبيراً مجهزاً بأخطرِ و أحدثِ ما عرفتِ الدنيا يومئذٍ من سلاحٍ

و عتادٍ ، و ذلك لطردِ المسـلمين مـن أرضِ العـراقِ ودخولِ أرضِ العـربِ المسـلمين و احتلالِـها بعـد استئصالِ مَنْ فيها من المسلمين و القضاءِ عليهم .

فكتب عمرُ رضي الله عنه إلى سـعدِ بـنِ أبـي وقاصٍ و كان بالكوفةِ كتاباً يقول فيه :

ابعث جيشاً كثيفاً إلى الأهوازِ مع النعمـانِ بـنِ مُقَرّنٍ و لا تتمهَّلْ ، و ليكونوا بإزاءِ الهرمزانِ .

و ذكر عمرُ لسعدٍ رضـي اللهُ عنـهما رجـالاً اختارهم ليكونوا مع النعمانِ في هذه المهمـةِ المقدسـةِ وهم:

جريرُ بنُ عبدِ البجليُّ ، و جريرُ بـنُ عبـدِ اللهِ الحميَريُّ، و سَويدُ بـنُ مقـرن ، و عبـدُ الله بـن ذي السهمين على أن يكونَ هؤلاءِ تحت إمرةِ النعمـانِ بـنِ مقرنٍ رضي الله عنه و لكن لماذا اختار عمرُ رضي الله عنه النعمانَ تحديداً ...؟ و من هو النعمانُ ...؟

(من هو النعمانُ بنُ
مقرنٍ ...؟)

هو واحدٌ من أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا به و اتّبعوه ، و شدُّوا أيمانَهم علـــى يمينِـــهِ مبايعين على الإسلامِ و الإيمانِ و رفعِ رايةِ الإسلامِ فـــي مشرقِ الأرضِ ومغربِها، و القتــالِ فــي ســبيلِ اللهِ ، والتضحيةِ من أجلِ ذلك بكلِ ما يملكون من نفسٍ و مالٍ.

و هو الذي قدم مع إخوتِهِ السبعةِ المدينــةَ علـــى رسولِ الله صلى الله عليه و سلم ، و معهم أربعمائةِ من قومِهم مزينةَ ، فأسلموا جميعاً دفعةً واحدةً ، و في ذلــك يقولُ النعمانُ مفتخراً : قَدِمْنا على رسولِ الله صلـــى الله عليه وسلم في أربعمائةِ من مزينةَ .

و هو الذي قال عنه الصحابيُّ الجليلُ عبدُ اللهُ بنُ مسعودِ رضي الله عنه : (إنَّ للإيمانِ بيوتاً ، و للنفـــاقِ بيوتاً، و إنَّ بيتَ بني مقرنِ من بيوتِ الإيمانِ)

و إنها لشهادةٌ عظيمةٌ و صادقةٌ يعتزُّ بــــها بنــو مقرنٍ و يفخرون ، كيف لا ...؟ و هي صـــــادرةٌ عـــن عملاقٍ كبيرٍ من عمالقةِ المسلمين في العلمِ و الصــــــدقِ والثقةِ و الإخلاصِ و التفاني في محبةِ اللهِ و رســــولِهِ ، وطاعةِ اللهِ و رسولِهِ .

و لقد ذكرتُ ترجمتَهُ كاملةً في كتـــابي (عمالقـــة الإسلام)

لقد لمع نجمُ النعمانِ بنِ مقرنٍ عند المســـــلمين ، وفاز بثقةِ الأميرِ سعدٍ ، و نال محبةَ الناسِ جميعاً يـــومَ معركةِ القادسيةِ ، حيث كان من أبرزِ الرسلِ الذين بعثهمُ الأميرُ سعدٌ للتفاوضِ مع رستمَ قائدِ الجيوشِ الفارسيةِ .

منذ ذلك اليومِ لمع نجمُهُ ، و نالَ ثقةَ الأميرِ سعدٍ الذي نقل إلى أميرِ المؤمنين عمرَ صورةً كاملـــــةً عـــن جرأتِهِ و شجاعتِهِ ، و جدارتِهِ بقيادةِ الجيشِ و مقاومــــةِ الفرسانِ ، وأهليتِهِ للنصرِ .

و المعروفُ عن أميرِ المؤمنين عمرَ رضـــي الله عنه أنه كان يحسنُ اختيارَ الولاةِ و الأمراءِ ، و يـــرددُ مقولتَهُ المشهورةَ :

أريدُ رجلاً إذا كان في القومِ و ليس أميراً عليهم، بدا و كأنه أميرُهم ، و إذا كان فيهم و هو عليهم أميرٌ ، بدا وكأنه واحدٌ منهم .

أريدُ والياً لا يميزُ نفسَهُ على الناسِ في ملبـــسٍ ، ولا في مطعمٍ ، و لا في مسكنٍ ، يقيمُ فيهمُ الصـــــلاةَ ، ويقسمُ بينهم بالحق ، و يحكمُ فيهم بالعدلِ ، و لا يغلـــقُ بابَهُ دون حوائجِهِم . بهذا الاختيارِ الدقيقِ كـــان عمـــرُ رضي الله عنه يختارُ ولاتَهُ و أمراءهُ .

و في ضوءِ هذه المعاييرِ الصادقةِ ، اختار عمـــرُ النعمانَ بنَ مقرنٍ لقيادةِ الجيشِ في حربِهِ مع الـــهرمزانِ قائدِ جيشِ الفرسِ ، و ما ذلك إلا من ثمراتِ ثقةِ عمـــرَ رضي اللهُ عنه المطلقةِ بكفاءةِ النعمانِ ، و يقينِهِ الثـــابتِ بجدارتِهِ للقيادةِ، و أهليتِهِ لمقارعة الهرمزانِ و دحـــرِهِ ، و من ثمَّ النصرِ عليه.

(كتابُ عمر إلى أبي موسى)
(الأشعري)

و بعد كتابِ عمرَ إلى سعدٍ ، كتـــب إلـــى أبـــي موسى الأشعري ، و كان أميرَ البصرةِ أن يبعثَ منـــها إلى الأهوازِ جيشاً آخرَ يكونُ ردءاً لجيشِ النعمانِ بـــنِ مقرنٍ و دعماً له ضدَّ جيشِ الفرسِ القادمِ بكثرةٍ و بأعدادٍ هائلةٍ كالسيلِ الجارفِ كما اختار عمرُ رضي الله عنـــه عدداً من المقاتلين الأشداءِ ، ذكرهم لأبي موسى ليكونوا مع جيشِ البصرةِ مدداً للنعمانِ و هم :

سُهَيلُ بنُ عدي و هو أميرُهم ، و ليكنْ معه البراءُ بـــنُ مالكٍ، و عاصمُ بنُ عمرو و مجزأةُ بنُ ثور ، و كعـــبُ ابنُ ثور ، وعرفجةُ بنُ هرثمةَ ، و حذيفةُ بنُ حصـــن ، وعبدُ الرحمنِ بنُ ســـهل ، و الحصيـــنُ بـــنُ معبـــد ، وكثيرون غيرُهم من الأبطالِ المشهورين ، و الفرســـانِ المعدودين .

(فتح رامهرمز)

و لقد اختارهم عمر رضي الله عنه بدون محاباة، أو تمييز ، أو عاطفة ، اختارهم لجدارتهم لهذا الأمر الجلل ، ولثقته المطلقة بكفاءتهم و أهليتهم لهذه المهمة المقدسة وانطلق هؤلاء الفرسان بكل أهلية و جدارة ليلتحقوا بجيشِ النعمانِ بنِ مقرنٍ و جيشِهِ المؤمنِ الذي خاض معركةً ضاريةً في موضعٍ يقالُ له (أربل) كان النصرُ فيها حليفاً للمسلمين الذين كسروا شوكةَ الهرمزانِ الذي فرَّ مع جندِهِ هاربين إلى تُستَر[1] وأخلى رامهرمز[2] للمسلمين ، فدخلها المسلمون بقيادةِ النعمانِ ابنِ مقرنٍ .

حدث هذا قبل وصولِ جيشِ البصرةِ الذين بلغهم وهم في الطريق أن النعمانَ قد هزم الهرمزانَ و انتصر

(١)تستر : أعظم مدينة بخوزستان ، و هي تعريب شوشتر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان . (٢)رامهرمز : قريبة من تستر .

عليه ، فغيَّرَ جيشُ البصرةِ طريقَهُ و سلك طريقاً أخــرى باتجاهِ تُستَر لمطاردةِ الهرمزانِ ، و كان جيشُ الكوفـــةِ بقيادةِ النعمانِ بـــنِ مقرنٍ قـــد ســـار باتجاه تُستَر أيضاً، لينتهيَ الجيشان المسلمان عندها ، فأحاطوا و ضربـــوا حولها حصاراً محكماً .

هذا ... و كان الهرمزانُ قد حشد في تُستَر جنوداً كثيرةً شَكَّلَ منها جيشاً كبيراً مع مَـــنْ فـــرَّ معـــه مـــن رامهرمز ، و مكثوا داخل تُستَر متحصّنِيـــن أشـــهراً ، والمسلمون قد أحكموا عليهمُ الحصارَ ، فكـــان بعـــضُ فرسانِ الفرسِ يخرجون إلى المسلمين يطلبـــون منـــهمُ المبارزةَ ، و أظهر المسلمون فـــي تلـــك المبـــارزاتِ بطولاتٍ خارقةً ، لم يسبقْ لها مثيـــلٌ ، و قـــد ذكرتُـــها مفصلةً في ترجمةِ النعمانِ بنِ مقرنٍ في سلسلةِ عمالقـــةِ الإسلامِ .

ثم تابع المسلمون زحفَهم و تقدمَهُم في بلادِ فارسَ بعد فتحِ تسترَ حتى انتهوا إلى السوسِ و كـــان يحكمُـــها شهريارُ أخو الهرمزانِ الذي رفض تسليمَ المدينةِ فقاتلـــه

المسلمون ، و اشتبكوا معه في معركةٍ قويةٍ انتـــهتْ باستسلامِ الفرسِ و إلقاء أسلحتِهِم ، و طلبِهِم الأمانَ من المسلمين الذين أجابوهم إلى ذلك .

(إسلام قائد)

(الفرس)

هذا ... و لا يزالُ المسلمون يتوغلــون فــي بــلادِ الفرسِ ، و ينتقلون من نصرٍ إلى نصرٍ ، و من فتحٍ إلى فتحٍ حتى استوثَقَتْ لهم تلك البلادُ ، و دان لــــهم أهلُــها ، وأدّوا إليهمُ الجزيةَ عن يدٍ و هم صاغرون ، و دخل كثير منهم في الإسلام عن رضاً و قناعةٍ من غيرِ ضغطٍ أو إكراهٍ .

فلما رأى كســـرى يزدجــردُ ســرعةَ الفتوحــاتِ الإسلاميةِ، و كثرةَ انتصاراتِ العربِ المسلمين ، وســـهولةَ تفوّقِهِم على جيوشِهِ الكثيرةِ و الجرارة ، اختار رجلاً مـــن خيرةِ فرسانِهِ يقالُ له (سياه) و كان فارساً مغواراً ، و بطلاً مجرباً ، و قائداً محنكاً له تجاربُــهُ الكثــيرةُ فــي خــوضِ المعاركِ و التخطيطِ للحروبِ ، و مع ذلـــك لــم يســتطعِ الصمود مع جيشه أمام شجاعة المســـلمين و استبســالهم ،

فكان سياه هذا يفرُّ أمام المسلمين في كلِ معركةٍ و مشـــهدٍ ، حتى شعر باليأسِ من النصرِ واعترف بفشلِهِ في حربِهِ مـــع المسلمين ، و تفوُّقِهِم عليه ، فجمع جنودَهُ و قال لهم :

إنَّ هؤلاءِ العربَ المسلمين بعد الشقاءِ و الذلّةِ ملكـوا أماكنَ الملوكِ الأقومين ، فلا يلقون جنداً إلّا قتلوهـــم ، و لا جيشاً إلّا كسروه ، واللهِ ما هذا عن بـــاطلٍ، وراح يتـأمَّلُ بفكرِهِ ، و يقلِّبُ الأمورَ بعقلِهِ ، و ينظرُ في أمـــرِ الإســـلامِ وعظمتِهِ و أبهتِـــهِ و ســـرِّ تقدمِـــهِ ، و ســـرعةِ فتوحاتِـــهِ وانتصاراتِهِ حتى أدرك السرَّ في ذلك الأمرِ وأنه يكمنُ فـــي عدالةِ الإسلامِ و سماحتِهِ ، و تعاونِ أبنائِـــهِ و تضامُنِـــهم ، والتزامِهِم أحكامَ دينِهم ، و صدقِ جهادِهِم، و تفانيـــهم فـــي سبيلِهِ ، و طاعتِهِمُ الصادقةِ للهِ ورسولِهِ و همُ الذين وقفـــوا أنفسَهم و أموالَهم رخيصةً في سبيلِ ربِهِم امتثالاً لأمـــرِهِ ، وابتغاء رحمتِهِ و رضوانِهِ تصديقاً لقولِ الحق تبارك وتعالى و إيماناً به :

(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكـــم مـــن عذابٍ أليمٍ . تؤمنون باللهِ و رسولِهِ و تجاهدون في ســـبيلِ اللهِ بأموالِكم و أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتـــم تعلمـــون .

يغفرْ لكم ذنوبكَم و يدْخلْكم جناتٍ تجري من تحتِها الأنــهارُ و مساكنَ طيبةً في جناتِ عدنٍ ذلك الفوزُ العظيمُ. و أخرى تحبونها نصرٌ من اللهِ و فتحٌ قريبٌ وبشرِ المؤمنيـــن)[1] صدق الله العظيم .

فما أصدقَ هذا الوعدَ ...!!

و ما أبهظَ هذا الثمنَ ...!!

و ما أعظمَ هذه البشارةَ و أصدقَها ...!!

و ما أروعَ هذا التبايعَ ...!! و ما أجلَّ خطَره ...!! فـإنَّ اللهَ عز وجل هو المشتري ، و الثمنُ جناتُ النعيـــم ، والفــوزُ بالرضوانِ العميم ، و إنها لصفقةٌ تجاريةٌ رابحــــةٌ، و إنـــه لربحٌ ضخمٌ هائلٌ أن يعطيَ المؤمنون الدنيا ليـــأخذوا بـــها الآخرةَ ...!!

لقد تمتِ المبايعةُ بينهم و بين اللهِ تعـــالى بوســاطةِ رسولِ الله صلى الله عليه و سلم ليلةَ العقبةِ ليلةَ اجتمع فيـــها الأنصارُ مع رسولِ الله صلى الله عليه و سلم فقال له عبـــدُ الله بنُ رواحةَ رضي الله عنه و هو يتكلمْ عن الأنصـــــار : اشترطْ لربك و لنفسِكَ ما شئتَ .

---

(١)الآيات ١٠-١٣ من سورة الصف .

فقال رسولُ الله صلى الله عليه و سلم : أَشترِطُ لربي أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئاً .

و أشترطُ لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم و أموالكم .

قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ...؟

قال : الجنةُ .

فقالتِ الأنصارُ : ربحَ البيعُ ، و لا نقيلُ و لا نستقيلُ .

هكذا كان إيمانُهم باللهِ تعالى و ثقتُهم به ، و هكذا كانت محبتُهم لرسولِ اللهِ صلى الله عليه و سلم ، لقد أحبوه بكلِ قلوبِهِم ، و أطاعوه بكلِ قواهم ، و آثروه على النفسِ و المالِ و الأهلِ و الولدِ و الناسِ أجمعين .

(أطاعوه في المنشطِ و المكرهِ ، و خرجوا يجاهدون في سبيلِ اللهِ خفافاً و ثقالاً ، لا يترددون و لا يتراجعون ، و لا يشاقّون الرسولَ من بعدِ ما تبينَ لهمُ الهدى ، و لا يجدون في أنفسِهِم حرجاً مِمّا قضى ، و لا يكونُ لهمُ الخيرَةُ من بعدِ ما أمر و نهى)[1]

---

(١)من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي .

فلا غروَ إذن بعد هذا أن يندفعوا للاستبسالِ في سبيلِ اللهِ وفيهم هذا الإيمانُ الغامرُ ، و العقيدةُ الراسخةُ، والثقةُ المطلقةُ باللهِ و رسولِهِ .

و لا عجبَ إذن أن يكونوا مع هذا أهلاً لتأييدِ الله تعالى و نصرِهِ و هو القائلُ : (**وَ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصُرُهُ إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ**)(١)

فكان نتيجةَ تفكُّرِ سياهَ قائدِ جيشِ الفرسِ ونظرِهِ في أمرِ المسلمين و سرعةِ انتصاراتِهِم ، و تأمُّلِهِ في أحكامِ الإسلامِ و تشريعاتِهِ أنْ هداهُ اللهُ تعالى للإسلامِ ، و شَرَحَ صدرَهُ للدخولِ فيه ، فعَرضَ ذلك على أصحابِهِ.

فأجابوه إلى ما يريدُ و قالوا له : نحن تبعٌ لك ، وكان عمارُ بنُ ياسر رضي الله عنه يدعوهم إلى الإسلامِ كلما سَنَحَتْ له الفرصةُ ، أو وجد مناسبةً ، فهداهُمُ اللهُ تعالى جميعاً ، و شَرَحَ صدورَهم للإسلامِ ، وأراد لهُمُ السعادةَ في الدارين ، تصديقاً لقولِ الحقِ تبارك و تعالى : (**فمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يهديَهُ يشرحْ صدرَهُ للإسلام**)(٢)

---

(١)الآية ٤٠ من سورة الحج .

(٢) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .

(أفمنْ شرح اللهُ صدرَهُ للإسلامِ فهو على نورٍ مـــنْ ربــهِ فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهُم مِنْ ذكرِ اللهِ أولئك في ضلالٍ مبينٍ)[1]

لقد دخل هؤلاءِ الفارسيون في الإسلامِ عن رضاً وطواعيةٍ ، و إيمانٍ راسخٍ عميقٍ ، و ضربوا أروعَ الأمثلةِ في الشجاعةِ و الاستبسالِ و قتالِ قومِهِم ، حتى لقد بلـــغ مــن أمرِهِــم وتضحياتِهِم أنهم حاصروا حصناً فامتنع عليهم ، فقام أحدُهم فـــي الليلِ فرمى بنفسِهِ على بابِ الحصنِ بعـــد أن ضَمَّـــخ ثيابَهُ و بدَنَهُ بالدمِ ، فلما نظر إليه جنودُ الفرسِ حسبوه منـــهم ففتحوا له بابَ الحصنِ فانقضَّ على الحارسِ فقتله ، فتقـــدم أصحابُهُ ففتحوا الحصنَ و قتلوا جميعَ مَنْ فيه مِنَ الفـــرسِ ، إلى غيرِ ذلك من البطولاتِ العظيمةِ التي أظهرها اللهُ تعالى على أيدي أولئك الفارسيين الذين شرَّفَهُمُ اللهُ تعالى ، و هدى قلوبَهم للإسلامِ ، و شرح صدورَهم للإيمـــانِ ليختـــمَ لـــهم بالحسنى ، و اللهُ يهدي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم .

---

(١)الآية ٢٢ من سورة الزمر .

(نظرة في أمجاد الإسلام)

أخي القارئَ العزيز ، بالتأملِ في هـــذه الحادثـــةِ ، وبإلقاءِ نظرةٍ مستأنيةٍ و فاحصةٍ تلمسُ أمراً هاماً ، و هو أنَّ الفرس الذين أسلموا و قاموا بأدوارٍ هامةٍ ، و شجاعةٍ فائقـــةٍ غيرتْ مصيرَ المعركةِ ، و كانتِ السببَ المباشـــرَ لســـقوطِ الحصنِ في أيدي المسلمين و غـــيرُ ذلـــك مـــن المواقـــفِ البطوليةِ و الشجاعةِ ، مع أنهم قبل إسلامِهم لم يُظهروا تلـك الشجاعةَ ، بـــل كـــانوا يـــهربون مـــن أرضِ المعركـــةِ ، ويتقهقرون أمام المسلمين ، فما السرُّ في ذلك ...؟ الجـــوابُ يتلخَّصُ في جملةٍ واحدةٍ .

هو أنَّ الإسلامَ يصقلُ أبناءهُ ، و يربيهم على الطاعةِ و النبلِ و الوفاءِ ، و يجعلُ منهم سادةَ و قادةَ ، و معجزةَ في التضحيةِ و البطولةِ و الفداءِ ، و مضربَ مثلٍ في الإيمـــانِ والشجاعةِ و الإباءِ ، و إن كانوا قبل إسلامِهم رجالاً عاديين لم يظهرْ منهم ما يدلُ على إيمانِهم ، أو كرامتِهم ، أو عظمةِ

نفوسِهِم ، وَ لم تبدُ منهم شجاعةٌ ، و لا بطولةٌ ، و لا فداءٌ ، و لا مضاء .

فهذا سيدُنا عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه الـــذي كان يرعى الإبلَ لأبيه الخطابِ الذي كان يضربُهُ وينـــهرُهُ ويهينُهُ ، و كان معروفاً قبلَ إســلامِهِ بفظاظتِــهِ وبطشِــهِ وجبروتِه ، و فجأةً و بعد إسلامِهِ يفاجئُ العــالمَ بعبقريتِــهِ وعصاميتِهِ ، و حسنِ تدبيرِهِ و إدارتِهِ ، و يستطيعُ بفضــل الإسلامِ أن يدحرَ قيصرَ و كسرى ، ويحكمَ دولــةً عظيمــةً مترامية الأطرافِ تمتدُ من شرقِ الأرضِ إلـــى غربِــها ، شعارُها العدلُ و الرحمةُ والتسامحُ و الحريـــةُ و المســاواةُ والإنسانيةُ .

و كذلك الحالُ بالنسبةِ إلى خالدِ بنِ الوليدِ رضـــي الله عنه الذي كان واحداً من فرسانِ قريشٍ ، و لم يكدْ يعرفُهُ أو يسمعُ عن فروسيتِهِ أحدٌ ، إذا به و بفضلِ الإســلامِ ينقــضُّ على المرتدين و على الفرسِ و الروم ، و يـــنزلُ عليــهم كالصاعقةِ بدَّدتْهم و مزَّقتْهم و فرَّقتْ جمعَهم .

و هذا أبو عبيدةَ عامرُ بنُ الجراحِ رضي الله عنـــه أمين هذه الأمةِ لم يكن قبل الإسلامِ سوى قائدٍ يقودُ الســرايا

الصغيرة ، إذا به في ظلِ الإسلامِ يتولى القيـــادة العظمـــى للجيشِ الإسلامي ، و يطردُ هرقلَ من ربوعِ الشامِ ومروجِها الخضراءِ .

و هذا سعدُ بنُ أبي وقاصٍ رضي الله عنه أولُ مَـــنْ رمى بسهمٍ في سبيلِ اللهِ و أولُ مَنْ رُمِيَ لم نقـــراً ، ولـــم نسمعْ عنه في تاريخِ العربِ قبل الإسلامِ كقائدٍ أو زعيـــمٍ أو فارسٍ ، إذا به في ظلِ الإسلامِ يقودُ الجيشَ ، و يتقلدُ مفاتيحَ المدائنِ ، و يقهرُ الفرسَ ، و يدحرُ زعيمَها رستم .

و هذا سلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه الذي كان عبداً رقيقاً بعد أن كان سيداً و ابنَ سيدٍ مـــنَ ســاداتِ الفــرسِ وأغنيائها ، يظهرُ فجأةً و بفضلِ الإسلامِ حاكمـــاً لعاصمـــةِ الأمبراطوريةِ الفارسيةِ التي كان بالأمسِ أحدَ رعاياها .

و كذلك الأمرُ بالنسبةِ لبلالٍ الحبشي الذي لم يكـــنْ قبل الإسلامِ سوى عبدٍ تائهٍ في الظلامِ ، لا حقَّ له في يومِهِ، و لا أملَ له في غدِهِ ، فكان يرعى الغنمَ لأميةَ بـــنِ خلــفٍ على قوتِ يومِهِ ، إذا به بفضلِ الإسلام ، وبســـببِ ورعِـــهِ وصلاحِهِ تبوأ أعلى المناصِبِ و أرفَعَـــها، فكـــان مـــؤذنَ الإسلامِ، و مزعجَ الأصنامِ ، الأمرُ الذي جعل عمرَ رضـــي

الله عنه و هو أميرُ المؤمنين يقولُ عنه إذا ذكِرَ أبو بكـــرٍ :
أبو بكرٍ سيدُنا ، و أعتق سيدَنا ، و لم يكنْ زعيماً، و لم يكنْ
غنياً ، و لم يكنْ عربياً ، وكذلك سلمان .

و هذا زيدُ بنُ حارثةَ رضي اللهُ عنه يقـــودُ جيــشَ
المسلمين إلى مؤتةَ و في الجيشِ مثلُ جعفرَ بنِ أبي طالبٍ ،
و خالدِ بنِ الوليد . كما قاد ابنُهُ أسامةُ جيشاً فيه مثـــلُ أبـــي
بكرٍ و عمرَ .

هكذا يختارُ النبيُّ صلى الله عليه و ســــلم تلاميــذَهُ،
وهكذا يصنعُ منهمُ الإسلامُ ، و يصقُلُهم و يربيهم ليصبحَ كلُّ
واحدٍ منهم أمةً ، و كذلك كان يقولُ عبدُ الله بــــنُ مســعودٍ
رضي الله عنه : إن معاذاً كان أمةً ، قانتاً لله

فقيل له : نسيتَ ...؟

فقال : ما نسيتُ ، إنا كنا نشبهُهُ بإبراهيمَ عليه السلامُ .

و هكذا كان جميعُ أصحابِ رســـولِ اللهِ صلـــى الله
عليه و سلم ، و هكذا يجبُ أنْ يكونَ كلُّ مسلمٍ مقلّدِاً لـــــهم،
ومتّبعاً إياهم في أخلاقهم و سلوكِهِم و تعاملِهِم وجهادِهِم.

فتشبهوا إنْ لم تكونوا مثلَهم   إنَّ التشبُّهَ بـــالــكرام فلاحُ

ثانياً : (سيرُ أحداثِها)
(التمهيدُ لها)

رأى الفرسُ أنهم يتخاذلون أمام المسلمين ، ويهربون منه في كلِ موقعةٍ و مشهدٍ ، و همُ الذين كانوا يسيطرون على العربِ ، و يتحكمون بمصائرِهم ، ويتصرفون بهم كما يشاءون ، يقتلون مَنْ يريدون قتلَهُ، و يتركون مَنْ يريدون تركَهُ ، و يتوِجون منهم مَنْ يرونه أكثرَ خدمةً ، و أشدَّ إخلاصاً فيجعلونه ملكاً على قومِهِ يكونُ تابعاً لهم ، و موالياً لدولتِهم ، و مؤتمراً بأمرِهِم ، و منتهياً بنهيِهِم ، فإذا ما غضبوا عليه أو ساءهُم بعضُ تصرفاتِهِ تخلصوا منه ، إما بالقتلِ ، و إما بالعزلِ .

و فجأةً رأَوا أنَّ الصورةَ قد تغيَّرَتْ ، و أنَّ المفاهيمَ قدِ انقلَبَتْ ، و أنَّ الموازينَ قدِ اختلفَتْ ، و أنَّ أسطورةَ الجيشِ الفارسي الذي لا يقهرُ قد تحطَّمَتْ ،

وتهشَّمَتْ على صخرةِ بطـــولاتِ المســلمين و ثباتِــهِم وتفانيهِم في سبيلِ دينِهِم و عقيدتِهِم ، فـــأصبح العــربُ المسلمون سادةَ الموقفِ ، والقوةَ التي يُحسَبُ حسابُها ، و هي التي فرضَتْ وجودَها ، و أثبتَتْ للدنيــا بأســرِها أنها قادرةٌ على سياسةِ الناسِ ، و قيادةِ العـــالمِ بتعــاليمِ الإسلامِ وآدابِهِ و أخلاقِهِ و نظرتِهِ الإنسانيةِ إلى جميـــعِ الناسِ نظرةَ رحمةٍ و تسامحٍ لا نظرةَ خضوعٍ و رهبــةٍ، أوِ استعلاءٍ وتعاظمٍ .

بذلك استطاع الإسلامُ أن يبدلَ المفاهيمَ الخاطئةَ ، ويضعَ المعاييرَ الصحيحةَ ، و يثبتَ للعالمِ كلِّهِ مقدرتَـــهُ على القيادةِ و السيادةِ و إدارةِ الحكمِ ، و إقامةِ العدلِ بين الناسِ ، مصداقُ ذلك قولُ الحقِ تبـــارك و تعالــــى : **(يـــا أيها الناسُ إنا خلقناكم مِنْ ذكرٍ و أنثى و جعلنــاكم شعوباً و قبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند اللهِ أتقـــاكم إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ)**[1]

---

(١)الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(فاحكمْ بينهمْ بالقسطِ إنَّ اللهَ يحبُ المقسطين)[1]

(و أنزلنا إليك الكتابَ بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتابِ و مُهَيمناً عليه فاحكمْ بينهم بما أنـزلَ اللهُ و لا تتَّبعْ أهواءهم عمّا جاءكَ مِنَ الحق لكلٍ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً)[2]

(أفحكمَ الجاهليةِ يبغون و مَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ حكماً لقومٍ يوقنون)[3] صدق الله العظيم .

بهذه الأحكامِ الإلهيةِ ، و الآدابِ الإسلاميةِ ، والمعاملاتِ الإنسانيةِ أصبح العربُ المسلمون سادةَ الدنيا وقادةَ الناسِ ، و بذلك استطاعوا أن يتحكموا بمصيرِ الفرسِ و الرومِ ، و أنَّ الفرسَ و الرومَ أصبحوا محكومين لهم ، خاضعين لأمرِهِم ، الأمرُ الذي ساءَ الفرسَ ، و أحزَنَهم وآلَمَهم أن خرج العربُ المسلمون من قبضتِهم و تحرروا من سلطانِهِم .

لذلك همّوا ليردّوا اعتبارَهُم المفقودَ ، و يعيدوا

---

(١)الآية ٤٢ من سورة المائدة . (٢)الآية ٤٨ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

مجدَهُمُ المسلوبَ ، و ينتقموا لكرامتِهِمُ المهانةِ ، فجمعوا جموعَهُمْ ، و جيَّشوا جيوشَهم ، و اجتمعوا من كلِ جهةٍ وصوبٍ ، حتى اجتمع منهم مائةٌ و خمسون الفَ مقاتلٍ، والتقَوا جميعاً بأرضِ نهاوندَ ، و أمَّروا عليهمُ الفيرزان، وقيل : بندار ، أو ذو الحاجب فقالوا و قد ملكهُمُ الغضبُ،و أخذتهمُ العصبيةُ و الحِدَّةُ ، و سيطر عليهمُ الانفعالُ النفسيُّ : إنَّ محمداً الذي جاء العربَ لم يتعرَّضْ لبلادِنا ، ولا أبو بكرٍ الذي قام بعده تعرّضَ لنا في دارِ ملكِنا .

و إنَّ عمرَ بنَ الخطابِ هذا لمّا طال ملكُهُ انتهك حُرمتنا ، و أخذ بلادَنا ، و لم يكفِهِ ذلك حتى غزانا في عُقرِ دارِنا ، و أخذ بيتَ المملكةِ[1] ، و ليس بمنتهٍ حتى يخرجَكم من بلادِكم .

فتعاهدوا ، و تعاقدوا على أن ينتقموا من العربِ المسلمين ، و يَنزلوا بهم أشدَّ البأسِ و العذابِ ، و اتفقوا على أن يبدؤوا هجومَهم على الكوفةِ و البصرةِ أولاً

---

(١)يقصدون المدائن لأنها عاصمة ملكهم .

لأنهما أقربُ البلدانِ إليهم ، فإذا مـــا تمَّ الهجومُ عليــــهما يصبحون بذلك قد شغلوا أميرَ المؤمنين عمرَ و جعلـــوه في حالةِ حيرةٍ و ارتباكٍ من أمرِهِ ، و بـــــالوقتِ نفسِــهِ يكونون قد شغلوه بحمايةِ دولتِـــهِ ، وهمـــومِ جيشِــهِ ، والهجومِ المفاجئِ الذي أصابه .

بلغتِ الأنباءُ الأميرَ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ رضــــي الله عنه بذلك ، و علم تفاصيلَ اجتماعِ الفــــرسِ و مــا اتفقوا عليه، فكتب إلى أميرِ المؤمنين عمرَ رضـــــي الله عنه كتاباً يخبرُهُ فيه بخطورةِ الموقفِ ، و شرح له مـــا تمالأَ عليه الفرسُ ، وهموا به ، و اتفقوا عليه ، و ذكـــر له أنه قدِ اجتمع منهم مائةٌ و خمسون ألفاً .

فالموقفُ إذن في غايةِ الخطورةِ و الحرجِ ، و لا بدَّ مِنِ اتّخاذِ موقفٍ صارمٍ ، و القيـــامِ بعمـــلٍ حاســـمٍ ، وعزيمةٍ ماضيةٍ لا تعرفُ الترددَ ، و لا التـــهاونَ ، و لا التخاذلَ .

و قد صدف أنْ جاءِ في غضونِ ذلك كتابُ عبــدِ اللهِ بنِ عبد اللهِ بنِ عتبانَ من الكوفةِ إلى عمرَ مع قريب

ابنِ ظفر العبديّ بأنَّ الفرسَ قدِ اجتمعوا و هم حـــــانقون حاقدون ، متذامرون على الإسلامِ و المســـلمين ، و أنّ المصلحة يا أميرَ المؤمنين تقضي أن نقصِدَهم فنعاجلَهم عمّا همّوا به وعزموا عليه من المسيرِ إلى بلادِنا .

فقال عمرُ رضي الله عنه لحاملِ الكتـــابِ : مـــا اسمُك...؟

قال : قريبٌ .

قال : ابنُ مَنْ ...؟

قال : ابنُ ظفِرَ .

فسُرَّ عمرُ رضي اللهُ عنه من عنوانِ اسمِهِ واســمِ أبيه، و تفاءَلَ بهما خيراً وِ قال : ظفرٌ قريبٌ إن شاء الله تعالى .

(الشورى)

ثم أمر عمرُ باجتماعِ المسلمين و أخذِ آرائِهِم عن طريقِ الشورى التي أمر الله تعالى بها ، فنُوديَ : الصلاةُ جامعةٌ .

فاجتمع الناسُ ، فكان أولَ مَنْ دخل المسجدَ سعدُ ابنُ أبي وقاصٍ رضي الله عنه الذي قدم المدينةَ بعدَ كتابِهِ ليطمئنَّ بنفسِهِ على قرارِ أميرِ المؤمنين عمرَ فلم يكد عمرُ رضي الله عنه يقعُ بصرُهُ على سعدٍ حتى فرح بمقدمِهِ .

و تفاءل مرةً أخرى ، فصعِدَ المنبرَ ، و حمِدَ اللهَ وأثنى عليه و قال : إنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيامِ، ألا وإني قد هممتُ بأمرٍ فاسمعوا و أجيبوا و أوجزوا ، و لا تنازعوا فتفشلوا و تذهبَ ريحُكم .

إني قد رأيتُ أنْ أسيرَ بمن قبلي حتى أنزل منزلاً

وسطاً بين هذين المصرين[١] فأستنفرَ الناسَ ، ثم أكـــونَ لهم ردءاً[٢] حتى يفتحَ اللهُ علينا .

فقام عثمانُ و عليٌّ و طلحةُ و الزبـــيرُ و عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ رضي الله عنهم في رجالٍ من أهـــلِ الرأي و الحِلمِ فتكلم كلٌّ منـــهم و رأى رأيـــهُ فأحســـنَ و أجادَ.

ثم اتفقت آراؤهم جميعاً على أن لا يخرجَ عمـــرُ من المدينةِ بل يبقى فيها و يبعثَ منها البعوثَ والإمدادَ، ويدعَمَهم برأيه و دعائِهِ ، ذلك أن المخاطرةَ بحياةِ أمـــيرِ المؤمنين عمرَ في مثلِ هذه الظروفِ الحرجةِ و القاسيةِ، والإسلامُ يعيشُ أيامَهُ الفاصلةَ ، عملٌ غيرُ سديدٍ إذ بـــه تعريضٌ لسلامةِ المسلمين ، و دفعُهم إلى خطرٍ محتملٍ.

و سكتوا جميعاً ، و خيَّم على المســـجدِ صمـــتٌ مطبقٌ فيه هيبةٌ و جلال ، و لكنْ سرعان مـــا انتفـــضَ عـــليٌّ رضي الله عنه فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ هذا

---

(١)المصران : تثنية مصر و هو البلد .

(٢)ردءاً : معيناً و حامياً .

الأمرَ لم يكنْ نصرُهُ و خذلانُهُ بكثرةٍ و لا قلةٍ[1] ، هــو دينُهُ الذي أظهرَ ، وجندُهُ الذي أعزَّ ، و أمَدَّه بالملائكــةِ حتى بلَغَ ما بلَغَ ، فنحن على موعــودٍ مــن اللهِ ، و اللهُ منجزُ وعدِهِ ، و ناصرُ جندِهِ ، و مــكانك منــــهم يــا أميرَ المؤمنين مكانُ النظامِ من الخرزِ يجمعُهُ و يمسكُهُ ، فإذا انحلَّ تفرَّقَ ما فيه و ذهَبَ ، ثم لم يجتمعْ بحذافــيرِهِ أبداً .

و العربُ اليومَ و إن كانوا قليلاً ، فــهم كثــيرٌ ، عزيزٌ بالإسلامِ ، فأقِمْ مكانك و اكتبْ إلى أهــلِ الكوفــةِ فهم أعلامُ العربِ و رؤساؤهم فلْيذهبْ منهُم الثلثان ويقيمَ الثلثُ ، واكتب إلى أهلِ البصرةِ يمدّونهم أيضاً .

ثم قام عثمانُ رضي الله عنه فأشــــار عليــه أن يمدَّهم بجيوشٍ من اليمنِ و الشامِ ، ووافــق أن يذهــبَ عمرُ إلى ما بين البصرةِ و الكوفةِ .

فــقام عليٌّ رضي الله عنه فعارض عثمان على

---

(١)ذكر علي ذلك تصديقاً لقولِهِ تعالى : (كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثــيرةً بإذنِ الله) .

اقتراحِهِ بذهاب عمرَ إلى ما بين البصـــرةِ و الكوفـــةِ ، وعلى ما أشار به علي عمرَ منِ استمدادِ أهلِ الشامِ خوفاً عليها إذا قلَّ جيشُها من هجومٍ مفاجئٍ قد يقومُ به الروم، و خوفاً على اليمنِ أيضاً من هجومٍ مباغتٍ مـــن قِبَـلِ الحبشةِ .

فأعجِبَ عمرُ برأي علي ، و سُرَّ به و أيدَهُ ومال إليه .

و كان عمرُ رضي الله عنه إذا استشار أحـــداً لا يعملُ به حتى يستشيرَ العباسَ عمَّ النبي صلى الله عليـــه وسلم لحلمِهِ الواسعِ ، و عقلِهِ الراجحِ ، و رأيهِ الصائبِ، و حكمتِهِ الفذَّةِ .

لقد كان عمرُ رضي الله عنه يؤمنُ إيماناً عميقـــاً بالشورى[1] تنفيذاً لأمرِ اللهِ تعالى ، و اقتداءً برسولِ الله

---

(١)ورد لفظ الشورى في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، قال تعـــالى (فاعفُ عنهم و استغفرْ لهم و شاورْهم في الأمرِ فإذا عزمتَ فتوكلْ علـــى اللهِ) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران ، و قال تعالى في وصف المؤمنيـن: (و الذين استجابوا لربِهِم و أقاموا الصلاةَ و أمرُهم شورى بينـــهم و مِمّـا رزقناهم ينفقون) الآية ٣٨ من سورة الشورى .

صـــلى الله عليه وسلم الذي كان يطبقُ هذا المبدأ تطبيقاً عملياً ، و يعتبرُهُ منهجاً قويماً لسياستِهِ الحكيمةِ النافذةِ .

حتى الخلافةُ جعلها عمرُ رضي الله عنه شـــورى بين الرجالِ الستةِ الذين توفيَ رسولُ اللهِ صلى الله عليـــه وسلم وهو عنهم راضٍ .

و لقد بلغ من إيمانِهِ القاطعِ بالشورى أنـــه كـــان يستشير حتى أعداءهُ كما فعل في سماعِ رأي الـــهرمزان في أمرِ حروبِ الفرسِ ، بل إنـــه كـــان يدعـــو حتـــى الأحداثَ يستشيرُهم و يأخذُ بآرائِهِم ، و قدِ اشتُهِرَ عنـــه أنه قال : (الرأيُ الفردُ كالخيطِ الســـحيلِ ، و الرأيـــان كالخيطين المبرمين ، و الثلاثةُ مرار لا يكادُ ينتقِضُ)[1]

(١)السحيل : الخيط المفتول على قوةٍ واحدةٍ ، و المبرَم : المفتـــول علـــى قوتين أو أكثر ، و يستعارُ السحيل للضعيف ، و المبرم للقوي ، قال زهـيرُ ابنُ أبي سلمى في معلقتِهِ :

يميناً لنـــعمَ الســـيدان وُجِـــدتُما علـــى كلِ حالٍ من سحيلٍ و مُبْرَمِ

و المرارُ : جمعُ مرةٍ ، و هي الفعلة الواحدة ، أي أن الخيط المفتول ثلاثـــاً أو أربعاً يكون قوياً جداً ، و لذلك قال عمر رضي الله عنـــه : و الثلاثـــةُ مرار لا يكاد ينتقض .

و هذه سماتُ القائدِ الناجحِ و الحاكمِ العادلِ الذي يـــأخذُ بمبدأ الشورى ، ويطبقُهُ تطبيقاً عملياً ، فلا ينفردُ برأيهِ، و لا يستبدُّ بحكمِهِ ، بل يستعينُ بمَنْ حولَهُ من أهلِ العلمِ و الحكمِ و العرفِ و التجربةِ لتكونَ قراراتُـــهُ ناجحـــةً وأقربَ إلى القبولِ و الكمالِ ، و تتمشّى مع روحِ التشـــريعِ الإسلامي السمحِ .

و الحاكمُ العادلُ هو الذي يختارُ أصـــدقَ النـــاسِ وأكملَهم لمساعدتِهِ في تحملِ أعبـــاءِ الحكـــمِ ، و أكـــرمَ الوزراءِ و أعلَمَهم يعتمدُ عليهم في تحقيقِ العدالةِ بيـــن جميعِ أفرادِ المجتمعِ ، و في ذلك يقولُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ وُلّيَ منكم عملاً فأرادَ اللهُ به خيراً جعل له وزيراً صالحاً ، إن نسيَ ذكَّـــرَهُ ، و إنْ ذكـــر أعانَهُ) .

من أجلِ ذلك كان عمرُ رضي الله عنه يســـتعينُ بآراءِ الصحابةِ على اختلافِ أعمارِهِم و مناصبِهِم ، ثـــم يستعينُ أخيراً برأيِ العباسِ رضي الله عنه ، فلما أعجبَهُ

كلامُ عثمانَ و عليٍ و مالَ إليه كما تقدم عَرَضَهُ علـــــى العباسِ ، فقال له العباسُ رضي الله عنــــه : يـــا أمـــيرَ المؤمنين ، خفِّفْ عليك ، فإنما اجتمع هـــؤلاءِ الفــرسُ لنقمةٍ نزلَتْ عليهم .

فنظر عمرُ في وجوهِ الصحبِ الكرامِ و قال لهم : أشيروا عليَّ أيها الناسُ ، بمَنْ أولّيه أمرَ الحربِ و ليكنْ عراقياً .

فقالوا : أنتَ أبصرُ بجندكَ يا أميرَ المؤمنين .

فقال : أما واللهِ لأولّيَنَّ رجلاً يكونُ أولَ الأسنةِ[1] إذا لقيها غداً .

---

(١)الأسنةُ : الرماح .

(اختيارُ النعمانِ بنِ مقرنٍ)
(لقيادةِ الجيشِ في العراق)

ألقى عمرُ رضي الله عنه كلمَتهُ ثم سكَتَ ، فجعل المسلمون ينظرون حولهم و لسانُ حالِ كلِ رجلٍ منهم يتساءلُ و يقولُ مستغرباً : مَنْ هو يا ترى هذا الموفقُ المحظوظُ الذي نال ثقةَ أميرِ المؤمنين عمرَ ، و همُ الذين يعلمون أنَّ كلَّ رجلٍ من المسلمين يتّصِفُ بالصفةِ التي ذكرها عمرُ رضي الله عنه : أما واللهِ لأُوَلّيَنَّ رجلاً يكونُ أولَ الأسنةِ إذا لقيها غداً .

قالوا : مَنْ يا أميرَ المؤمنين ...؟

قال : النعمانُ بنُ مُقَرّنٍ .

فقالوا جميعاً : هو لها .

هذا ... و كان النعمانُ قد كتب إلى عمرَ و هو على كسكر ، و ذكر له رغبتَهُ أن يعزلَهُ عن كسكرَ ويسندَ إليه مهمةَ قتالِ أهلِ نهاوندَ ، و لذلك أجابه إلى ما

سأل و عيَّنَهُ فوراً أميراً على جيشِ المسلمين لقتالِ أهــلِ نهاوندَ .

(كُتُبُ عمرَ رضي الله عنه)

(إلى أمراءِ الجند)

بدأ عمرُ رضي الله عنه بوضعِ خططِهِ الحربيـــةِ وتوجيهِ أمراءِ جندِه في الأمصار للوقوفِ إلـــى جــانبِ النعمانِ ، و دعمِهِ مادياً و عسكرياً ، و مساعدتِهِ بكلِ ما يلزمُ من دعاءٍ و تضامنٍ ، و دعمٍ مـــادي و عســكري لإنجاحِ مهمتِهِ المقدسةِ التـــي يتوقــفُ عليــها مصــيرُ المسلمين بعد اجتماعِ الفرسِ و تشكيلِ قوةٍ كبيرةٍ للهجومِ على بلادِ المسلمين .

لذلك كتب عمرُ رضي الله عنه إلى حذيفـــةَ بـــنِ اليمانِ أن يسيرَ من الكوفةِ بجنودٍ منها إلى نهاوندَ .

و كتب أيضاً إلى أبي موسى الأشعري أن يســيرَ بجنودٍ من البصرةِ .

و كتب إلى النعمانِ بنِ مقرنٍ و كان بالبصرةِ أن

يسيرَ منها بالجنودِ و الفرسانِ إلى نهاوندَ ، فإذا اجتمع الناسُ فكلُ أميرٍ على جيشِهِ ، و الأميرُ عليهم جميعاً النعمانُ بنُ مقرنٍ ، فإذا قُتِلَ النعمانُ تسلَّمَ القيادةَ حذيفةُ ابنُ اليمانِ ، فإن قُتِلَ فجريرُ بنُ عبدِ الله ، فإن قتل فقيسُ ابنُ مكشوحٍ ، فإن قتل قيسٌ ففلانٌ ثم فلانٌ حتى ذكر سبعةً أحدُهُمُ المغيرةُ بنُ شعبةَ .

و بالتأملِ في كتبِ عمرَ رضي الله عنه ، وتوزيعِهِ القيادةَ لأميرٍ بعد آخرَ نستدلُ على معرفتِهِ برجالِهِ فرداً فرداً ، و وضعِ الرجلِ المناسبِ في المكانِ المناسبِ و في الوقتِ المناسبِ ، و تلك مزيةٌ لعمرَ جعلته لا يخطئُ في اختيارِ الرجالِ و القادةِ لمعاونتِهِ في تحملِ أعباءِ الحكمِ في الحربِ و في السلمِ ، و تلك مزيةٌ لعمرَ لم يكتبْ لرجلِ دولةٍ ، أو زعَيمِ أمةٍ أن ينجحَ بدونِها .

لقد سمع عمرُ رضي الله عنه بأعمالِ خالدِ بنِ الوليدِ و بطولاتِهِ الخارقةِ في أرضِ الشامِ بعد عزلِهِ عن

قيادةِ الجيشِ يوم معركةِ اليرموكِ ، و كان خالدَ رضـــي اللهُ عنه يقاتلُ كجندي عادي تحت إمرةِ أبـــي عبيــدةَ ، فهتف عمرُ من أعماقِ قلبه : أَمَّرَ خالدٌ نفسَهُ...!! يرحــمُ اللهُ أبا بكرٍ ، هو كان أعلمَ بالرجالِ مني .

(كتاب عمر رضي الله عنه)
(إلى النعمانِ بنِ مقرنٍ)

و كتب عمرُ إلى النعمانِ مع جملةِ ما كتب إلـــى الأمراءِ يخاطبهُ قائلاً :

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ... من عبـــدِ اللهِ عمـــرَ أميرِ المؤمنين إلى النعمانِ بنِ مقرنٍ .

سلامٌ عليكَ ، فإني أحمدُ اللهَ إليكَ الذي لا إلهَ إلا هو .

أما بعد :

فإنه قد بلغني أنَّ جموعاً من الأعاجمِ كثيرةً قد جمعـــوا لكم بمدينةِ نهاوندَ ، فإذا أتاكَ كتابي هذا ، فسِرْ بأمرِ اللهِ و بعونِ اللهِ ، و بنصرِ اللهِ بمن معكَ مِنَ المسلمين ، ولا توطِئْهم وعراً فتؤذيَهم ، و لا تمنعْهم حقَّهم فتكفرهـــم ، ولا تدخلْهم غيضةً[١] ، فإنَّ رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ

(١)الغيضة : الشجر الملتف و جمعه غياض و غيضات .

من مئةِ ألفِ دينارٍ ، و السلام عليكَ .

فسِرْ في وجهِكَ ذلك حتى تأتَي (ماه)[٣] فإني قد كتبتُ إلى أهلِ الكوفةِ أنْ يوافوكَ بها .

فإذا اجتمع إليكَ جنودُكَ ، فسِرْ إلى الفيرزانِ ومَنْ جمع معه مِنَ الأعاجمِ مِنْ أهلِ فارسَ و غيرهم .

و استنصروا ، و أكثروا من قولِ لا حـــولَ و لا قوةَ إلا باللهِ .

و كتب عمرُ أيضاً إلى نائبِ الكوفةِ عبدِ اللهِ بـــنِ عبدِ اللهِ أن يبعثَ جيشاً إلى نهاوندَ ، و لْيكـــنِ الأمـــيرَ عليهم حذيفةُ بنُ اليمانِ حتى ينتهيَ إلى النعمانِ بنِ مقرنٍ فإن قتل النعمانُ ، فحذيفةُ بنُ اليمانِ ... و هكذا كما تقدم تفصيلُهُ .

و أمر بجعلِ الغنائمِ و قسمِها إلى الســـائبِ بـــنِ الأقرع .

---

(٣) ماه : اسم موضع .

(السير إلى نهاوندَ)

انطلق حذيفةُ بنُ اليمانِ رضي الله عنه يقودُ جيشَهُ ليوافيَ النعمانَ بنَ مقرنٍ (بماه) و معه عددٌ كبيرٌ من أمراءِ العراقِ ، و قد أرصدَ في كلِ كورةٍ[1] ما يكفيها من المقاتلين للدفاع عنها ، و وزَّعَ الحرس في كلِ ناحيةٍ ، و احتاط احتياطاً شديداً لحمايةِ جيشِهِ حتى انتهى إلى النعمانِ حيث موضعُ اللقاءِ ، و ما إنِ التقيا حتى دفع حذيفةُ إلى النعمانِ كتابِ عمَر و فيه الأمرُ بما يعتمدُهُ في هذه الوقعةِ .

هذا ... و مازالتِ الجيوشُ الإسلاميةُ تتدفقُ إلى أرضِ (ماه) حتى كمُلَ جيشُ المسلمين في نحو ثلاثين ألفاً من المقاتلين الأشداءِ ، و فيهم من أكابرِ الصحابةِ ، و ساداتِ العربِ و زعمائِهِم مثلُ عبدِ اللهِ بنِ عمَر بنِ

---

(١) الكُورة : البقعة التي يجتمع فيها قرَى و محالُ ، الجمع كُوَر .

الخطاب وجرير بن عبد الله البجلي ، وحذيفة بن اليمان، و المغيرةِ بنِ شعبةَ ، و عمروِ بنِ معدِ يكربَ ، وطُلَيحةَ ابنِ خويلدٍ الأسدي ، و قيسِ بنِ مكشوحٍ ، وجميعُ هؤلاءِ من عظماءِ المسلمين و أكابرِ الصحابةِ ، وجميُعهم لا يُستهانُ بهم ، فكلٌّ منهم يعادلُ جيشاً بكاملِهِ

وانطلقوا جميعاً تحت رايةِ لا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله بقيادةِ النعمانِ بنِ مقرنٍ .

لم يكنِ الانطلاقُ عشوائياً إذ لا بدَّ من أخذِ الحيطةِ و الحذرِ ، لذلك أرسل الأميُر النعمانُ ثلاثةً من الفرسانِ الأشداءِ يكونون طليعةً للجيشِ و يكشفون لهم خبرَ العدو ، و يرقبون تحركاتِهِ ، و هم :

طُلَيحةُ بنُ خويلدِ الأسديُّ ، و عمروُ بنُ معديكربَ الزُّبَيديُّ ، و عمروُ بنُ أبي سلمةَ .

و مضى هؤلاء الثلاثةُ يوماً و ليلةً لأخذِ خبرِ عنِ العدوِ ، و رصدِ تحركاتِهِ و عددِ مقاتليهِ ، فرجع عمرو ابنُ أبي سلمةَ ليس معه شيءٌ من الأخبارِ ، فسأله المسلمون : ما رجعك ... ؟

فقال : كنتُ في أرضِ العجمِ ، و قتلَتْ أرضٌ جاهلَـــها ، و قتل أرضاً عالمُها .

ثم رجع بعده عمروُ بنُ معدِ يكربَ ، فسئل عـــن سببِ رجوعهِ فقال : لم نَر أحداً و خفتُ أنْ يؤخَذَ علينـــا الطريقُ ... يريد أنه خشي أن يضيعَ في أرضِ العـــــدوِ وتابع طُليحةُ مسيرَهُ و لم يحفِلْ بعودةِ صاحبيهِ حتى قطع أكثر من بضعةَ عشرَ فرسخاً حتى انتهى إلى نـــــهاوند ، فدخلها و اختلط بأهلِها ، و علمِ من أخبارِهم ما يحـــبُّ ، ثم رجع إلى أصحابهِ ليقولَ لهم : إنَّ الطريـــقَ آمنـــةٌ ، وإنه ليس بينهم و بين نهاوندَ ما يشكلُ عليهم خطراً .

فاطمأنَّ النعمانُ على ســـلامةِ جيشِـــهِ و أمنِـــهِ ، وحفظ بذلك وصيةَ أميرِ المؤمنين عمرَ رضي الله عنـــه حين قال له و هو يوصيهِ بالمسلمين :

(لا توطئْهم وعراً فتؤذيهم ، و لا تمنعْهم حقَـــهم فتكفرهم ، و لا تدخِلْهم غيضةً ، فإنَّ رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مئةِ ألفِ دينارٍ) .

لقد كان عمرُ رضي اللهُ عنه حريصاً حرصاً شديداً على سلامةِ المسلمين ، و كان يخشى أن يَمَسَّهم أيٌ سوءٍ ، لذلك كان قلبُهُ دائماً مع جنودِهِ في كلِ جهةٍ توجهوا إليها و في كلِ أرضٍ دخلوها لدرجةِ أنه إذا كان يتلو القرآن لا يدري أهو في أولِ السورةِ أو في آخرها، كما كان يخرج كلَّ يومٍ إلى ظاهرِ المدينةِ يترقبُ أخبارَ جنودِهِ ، و يسأل كلَّ من يمرٌ به إن كان عنده شيءٌ من أخبارِ المجاهدين في سبيلِ اللهِ .

لذلك كان رضي الله عنه لا يوافقُ على انسياحِ الجيشِ الإسلامي في بلادِ فارسَ ، و يتمنّى أنْ يكونَ بين العربِ و بلادِ العجمِ جبلٌ من نارٍ لا يخلُصون منه إلى بلادِ العربِ ، و لا يخلُصُ العربُ منه إلى بلادِ فارس ، و حين علم بالخطرِ الفارسي يهددُ الأمنَ في بلادِ العربِ المسلمين أيقَنَ أنه لا بُدَّ له أن يأذنَ بالانسياحِ في بلادِ فارسَ لمباغتتِهِم في بلادِهِم ، و كسرِ شوكتِهِم قبل أن ينطلقوا منها ، ليضمنَ لبلادِهِ و رعاياه الأمنَ و الأمانَ

والسلمَ و السلامَ و مِنْ ثَمَّ كان الأحنفُ بنُ قيسٍ قد أشــار عليه من قبلُ بضرورةِ الانسياحِ في تلك البلادِ وقال له:

(يا أميرَ المؤمنين ، إنك نهيتَنا عنِ الانسياحِ في البـــلادِ وإنَّ مَلِكَ فارسَ بين أظهرِهم ، و لا يزالون يقاتلون مـــا دام ملكُهم فيهم ، و لم يجتمعْ ملكان متفقان حتى يُخــرِجَ أحدُهُما صاحبهُ .و قد رأيتُ أنّا لم نأخذْ شيئاً بعد شــيءٍ إلا بانبعاثِهم و غدرِهِم ، و أنّ ملكَهم هو الذي يبعثُــهم ، ولا يزالُ هذا دأبَهم حتى تأذنَ لنا بالانسياحِ فنسيحَ فـــي بلادِهِم و نزيلَ ملكَهم ، فـــهنالك ينقطـــعُ رجـــاءُ أهــلِ فارسَ).

فقال عمرُ رضي الله عنه : صدقتَني و اللهِ .

و أذِنَ في الانسياحِ في بلادِ فارسَ .

(اللقاء)

بعد أخذِ الحيطةِ و الحذرِ ، و الاطمئنـــــانِ إلـــى سلامةِ الطريقِ و أمنها ، أمر النعمانُ جيشَـــهُ بالمســـيرِ نحو نهاوند ، و جعل على المقدمةِ أخاه نعيمَ بنَ مقرنٍ ، و على المجنبتين حذيفةَ بنَ اليمانِ ، و أخاه الآخرَ سُوَيدَ ابنَ مقرن ، و على الفرسانِ القعقاعَ بنَ عمروٍ ، و علـــى المشاةِ مجاشعَ بنَ مسعودٍ ، و انطلقوا حتى انتهوا إلـــــى الفرسِ و عليهمُ الفيرزانُ ومعه من جنودِ الفرسِ كلُ مَنْ غاب عنِ القادسيةِ و لم يشهدْ أيامَها ، و كان عددُهم مئةَ و خمسين ألفاً .

فلما تراءى الجمعان أطلق النعمانُ تكبيرةً عاليةً ، فكبر المسلمون بعده ثلاثَ تكبيراتٍ رَجَّـــتْ لـــها أرض المعركةِ ، و ترددَّتَ أصداؤها في كلِ جهةٍ ، و ارتفَعَتْ حتى عانقَتِ السماءَ ، فقذف اللهُ الرعبَ في قلوبِ الفرسِ

و زُلزلَتْ نفوسُهم ، و ارتَعدَتْ فرائصُـــــهم ، و ملكَـــهُم الخوفُ ، و سيطر عليهمُ الضعفُ و الوهنُ فتسمروا في أماكنِهِم لم يستطيعوا أن يغادروها لهولِ مــــا رأوا مـــن مفاجأةٍ ، و ما سمعوا من تكبيرٍ خلع قلوبَهم و أزالها عن مواضِعِها .

فلما رأى الفيرزانُ ما أصاب جنودَه من خـــوفٍ ووجل ، و ما سيطر عليهم من جبنٍ و خَوَرٍ أمر بربـــط كلِ عشرةٍ أو عشرين مـــن المقاتلين بسلاسلِ الحديدِ كي لا يفروا من أرضِ المعركةِ .

(بدءُ القتالِ)

و في صبيحةِ يومِ الأربعاءِ بـــدأ القتـــالُ قويـــاً ضارياً، أظهَر فيه كلٌّ من الفريقين شجاعةً لا توصف ، و استمرّ بهمُ الحالُ كذلك حتى فصل بينهمُ الليلُ بظلامِهِ و في صبيحة اليومِ التالي و هو يومُ الخميسِ اســـتؤنِفَ القتالُ الذي استمرّ كذلكَ إلى أن خيَّمَ الظلامُ ، و الحربُ سجالٌ بين الفريقين تكونُ الغلبةُ مرةً للمسلمين ، و مـــرةً للفرسِ رغم تفوقِهِم بالعددِ و القُوَّةِ .

فلما كان اليومُ الثالثُ و هو يومُ الجمعةِ ضغـــط المسلمون على الفرسِ ضغطةً قويـــةً جعلتـــهم يفـــرون أمامهم ليحتموا داخلَ حصونِهِم ، فحاصرهم المسلمون ، و أحكموا عليهمُ الحصارَ ، فأقاموا على ذلك ما شاء اللهُ أن يقيموا ، يخرجون متى شاؤوا ، و يرجعـــون إلـــى حصونِهِم متى شاؤوا ، فاشتدّ ذلك علـــى المســـلمين ، وخافوا أن تطولَ مدةُ الحصارِ ، و ينفدَ ما لديـــهِم مـــن

مؤنٍ ، و هم لم يعتادوا على طقسِ تلك البلادِ و الشـــتاء على الأبواب يحملُ معه برداً لم يألفْهُ العربُ المســلمون في الوقتِ الذي يحتمي فيه الفـــرسُ داخـــلَ حصونِـــهِم ممتنعين من المسلمين ، و من أذى البردِ الشديد والمطرِ و الثلج .

(المغيرةُ بنُ شعبةَ يفاوضُ الفرسَ)

كان الفيرزانُ قائدُ الفرسِ رأى أنَّ الحصارَ قـــد طالَتْ مدتُهُ ، و أنَّ المسلمين لن يفكّوه عنـــهم ، و لـــن يغادروا أماكنهم حتى يقاتلوهم .

فبعث إليهم يطلبُ منهم رجلاً عاقلاً للمفاوضةِ .

فذهب إليه المغيرةُ بنُ شعبةَ ، و كان ذكياً متكلماً فصيحاً و جريئاً ، ذا فكرٍ ثاقبٍ ، و عقلٍ راجحٍ ، و رأيٍ صائبٍ كما كان أحدَ دهاةِ العربِ الأربعةِ ، فكان لا يقعُ في أمرٍ إلا وجد له مخرجاً ، و لا يلتبسُ عليه أمران إلا ظـــهر الرأيُ في أحدِهما .

هذا ... و كان المغيرةُ بنُ شعبةَ رضي الله عنـــه هو الذي يذهبُ في كلِ مرةٍ لمفاوضةِ أميرِ الفرسِ ، فلما دخل المغيرةُ على الفيرزانِ أميرِ الفرس و كان يرتـــدي ثياباً بذلةً متواضعةً ، جعل الفيرزانُ و جنودُهُ يســخرون من المغيرةِ و ينظرون إليـــه نظـــراتٍ كلُّـــها احتقـــارٌ

واستخفاف بالعرب ، و استهانةً بما كانوا عليه من فقــرٍ و جوعٍ ، و تفرقٍ و تمزقٍ ، و كراهيـــةٍ و بغضـــاء ، وموالاةٍ للفرسِ ، و خضوعٍ لأمرِهِم ... الخ .

فجعل الفيرزانُ يخاطبُ المغيرةَ بكلامٍ بذيءٍ يـدلُ على دناءتِهِ و سوءِ أخلاقِهِ و ذلك باحتقـــارِ العــربِ ، وأنهم كانوا أكثَر الناسِ جوعاً ، و أقلَّهم داراً و قدراً .

فقال له : ما يمنعُ هــؤلاءِ الفرســانَ حولـــي أن ينتظموكم بالنبلِ إلا كراهتُهم لجيفكِم ، فإنْ تذهبوا نخــلّ عنكم ، و إنْ تأبوا نُزرْكم مصارعكم .

فردَّ عليه المغيرةُ بشجاعةٍ و رباطةِ جأشٍ .

يقولُ المغيرةُ رضي الله عنه : فتشهدتُ و حمدتُ اللهَ وقلتُ : لقد كنا أسوأَ حالاً مِمّا ذكرتَ ، حتى بعـــث اللهُ رسولَهُ فوعَدَنا النصرَ في الدنيـــا ، و الخـــيرَ فـــي الآخرةِ ، و مازلنا نتعرفُ من ربِنا النصرَ منذ بعــثَ اللهُ إلينا رسولَهُ و قد جئناكم في بلادِكم ، و إنّا لن نرجعَ إلى ذلك الشقاءِ أبداً حتى نغلِبكم على بلادِكم ، و مـــا فـــي أيديكم ، أو نُقتَل بأرضِكم .

فلما سمع الفيرزانُ هذا الكلامَ الجريءَ الفصيـــح الذي يُنبِئ عن قوةِ قائلِهِ و شجاعتِهِ ، و قوةِ الدينِ الـــذي يعتنقُهُ و يتكلمُ به و عظمتِهِ ، قال : أما و اللهِ إنَّ الأعورَ لقد صدقكم ما في نفسِهِ .

فخرج المغيرةُ دون أن يصلَ مع الفيرزانِ إلـــى نتيجةٍ أو حلٍ ليعودَ إلى قومِهِ ليخبرَهم بنتيجةِ مفاوضاتهِ مع الفرسِ .

(مشاورةُ أهلِ الرأي)
(من المسلمين)

رأى المسلمون إخفاقَ المغيرةِ بنِ شعبةَ في مباحثاتِهِ مع زعماءِ الفرسِ و قادتِهِم ، فاجتمع أهلُ الرأي و الحلمِ منهم و قالوا : نرى عدونّا بالخيارِ ، يقيمون في حصنِهِم ما يشاؤون ، ويخرجون منه متى يشاؤون ... !!

فقال لهمُ أميرُهُمُ النعمانُ : على رِسْلِكم[١] ، لا تبرحوا ، و بعث في طلبِ مَنْ بقي من أهلِ العلمِ والرأي في الحروبِ ، فقال لهم : قد ترون المشركين واعتصامَهم بالحصون من الخنادقِ و المدائنِ ، و أنهم لا يخرجون إلا إذا شاؤوا ، ولا يقدرُ المسلمون على إنفاضِهِم[٢] و إخراجِهِم قبل مشيئتِهِم[٣] .

---

(١) أي انتظروا ، و لا تغادروا أماكنكم . (٢) الإنفاض هنا : التحرك والاضطراب . (٣) أي أنهم لا يخرجون إلا متى يشاؤون .

و قد ترون ما فيه المسلمون من التضايقِ والشدةِ و عدمِ الحيلةِ ، فما الرأيُ الذي به نحمِشُهم[١]. ونستخرجُهم إلى المنابذةِ ، و تركِ التطويلِ ... ؟

فقام عمروُ بنُ أبي سلمةَ و كان أسنَّ القرمِ فقال : إنَّ بقاءهم على ما هم عليه أضرٌّ عليهم من الذي نطلُبُهُ منهم ، و أبقى على المسلمين .

فردَّ عليه الجميعُ و قالوا : إنا لعلى يقينٍ من إظهارِ دينِنا ، و إنجازِ موعودِ اللهِ لنا .

ثم قام عمروُ بنُ معدِ يكربَ فقال : أيها الأميرُ ، ناهدهم[٢] ، و كاثرهم ، و لا تحقْهم فقاموا جميعاً فردّوا عليه و قالوا : إنما تناطحُ بنا الجدرانَ ، و الجدرانُ أعوانٌ لهم علينا .

فقام طُليحةُ الأسديٌّ فتكلم و قال : إنهما لم يصيبا، و إني أرى أن تبعثَ سريةً فتحدقَ بهم ويناوشوهم بالقتالِ ليستنشروهم ، فإذا برزوا إليهم

---

(١)أحمشه : هيجَهُ و أغضبه و حرضه على القتال .

(٢)ناهدهم : ناهضهم و قاومهم .

فلينفروا إلينا هراباً ، فإذا استطردوا وراءهم و انتـــهوا إلينا عزمْنا أيضاً على الفرارِ كلُّنـــا ، فإنـــهم حينئـــذٍ لا يشكون في الهزيمةِ ، فيخرجون من حصونِهِم عن بكرةِ أبيهم ، فإذا تكاملَ خروجُهم رجعنا إليهم فجالدناهم حتـــى يقضيَ اللهُ بيننا .

فاستجاد الناسُ هذا الرأيَ و استصوبوه و اتفقـــوا جميعاً على تنفيذِهِ و العملِ به .

فأمر النعمانُ القعقاعَ بنَ عمروٍ أن يذهبَ بجماعةٍ من المقاتلين الأشـــداءِ الذيـــن يختـــارُهم إلـــى البلـــدِ فيحاصرَها، فإن برزوا إليه هـــرب بمـــن معـــه مـــن المقاتلين.

ففعل القعقاعُ ذلك و ذهب إلى الحصنِ فلمـــا رآه جنودُ الفرسِ برزوا من حصونِهِم ، فنكصَ القعقاعُ بمـــن معه و تظاهَرَ بالخوفِ و الجبنِ ، و هَمَّ بالهربِ فاستغلَّ الفرسُ خوفَهُ و هربَهُ ، فلحقوا به و هم يقولون :

هي...هي... فلم يبقَ منهم أحدٌ في الحصـــنِ إلا خرج سوى مَنْ يقومون بحراسةِ الأبوابِ .

(الهجومُ من قبل الفرسِ)

و لا يزالُ القعقــاعُ رضـــي الله عنـــه يتظـــاهرُ بالهربِ ، و الفرسُ يتبعونه حتى انتهى إلى المسلمين ، و ذلك في صبيحةِ يومِ جمعـــــةٍ ، فـــهمَّ المســـلمون أن يتصدَّوا لهم فنهاهُمُ النعمانُ و أمَرَهم أن يكفوا أيديَـــهم ، ولا يقاتلوا حتى تزولَ[1] الشمسُ ، و تـــــهبَّ الريـــاحُ ، وينزلَ النصرُ كما كان يفعلُ رسولُ اللهِ صلى الله عليـــه وسلم .

حدث هذا و النعمانُ واقفٌ مع الناسِ قـــد عَـــهِدَ إليهم عهدَهُ ، و أمرهم أن يلزموا أماكنَهم ، و لا يقـــاتلوا حتى يأذنَ لهم ، ففعلوا ذلـــــك و أطـــاعوا و اســـتتروا بالحَجفِ[2] من الرمي ، هذا ... و لا يزالون ملازميـــن أماكنَهم ، و المشركون يرمونهم بالسهامِ حتى أفشَوا فيهمُ

(١)زوال الشمس : ميلها جهة الغروب ، وذلك وقت الظهيرة .

(٢)الحَجَفُ : جمع حَجَفَةَ وهي الترس المصنوع من الجلد .

الجراحَ ، فشكا بعضُ الناسِ ذلك إلى بعضٍ ، ثم قـــالوا للنعمانِ :

ألا ترى ما نحن فيه ...!! ألا ترى إلى ما لقـــيَ الناسُ ...!! فما تنتظرُ بهم ...!!

و النعمان يرقبُ أرضَ المعركةِ ، و يضغطُ على أسنانِهِ حيناً ، و على شفتيهِ حيناً ، يفعلُ ذلك في محاولةٍ منه لكبحِ جماحِ ثورتِهِ و غضَبِهِ ، و للتخفيفِ من حـــدةِ انفعالِهِ إلى أن يحينَ الوقتُ المناسبُ لأخذِ قرارِ الـــهجومِ على العدوِ ، و هو قرارٌ خطيرٌ جداً يتطلبُ منه كثـــيراً من الصبرِ و التحملِ و التُّؤدة و المقاومةِ في مثلِ هـــذا الموقف .

لقد كان النعمانُ رضي الله عنه يعتصـــرُ ألمـــاً ، ويدافعُ حزناً عميقاً ، و لكنه كان يتكلـــفُ مـــن التجلـــدِ والتصبرِ ما لا بد منه محاولاً أن يمنعَ الحزنَ أن يظـــهرَ على وجهِهِ ، أو ينطلقَ على لسانِهِ ليثبـــتَ أنـــه القـــائدُ الصبورُ و الشجاعُ الذي ليس للجزعِ على نفسِهِ سلطانٌ، و لا للضعفِ إلى قلبِهِ سبيلٌ .

و بينما هو في هذه الحالةِ النفسيةِ من التجلدِ والتصبرِ يخفي عن جنودِهِ ما يلقاه من ألمٍ و حزنٍ وإشفاقٍ عليهم لما أصابهم ، حتى ضجّوا إليه ، و قالوا له : ألا ترى ما نحن فيه ...!! ألا ترى إلى ما لقيَ الناسُ ، فما تنتظرُ بهم ...!! ائذَنْ للناسِ في قتالِهِم .

و أعادوا ذلك مراراً ، و هو يقولُ لهم : رويداً...رويداً .

فقال المغيرةُ بنُ شعبةَ : لو أنَّ هذا الأمرَ إليَّ علمتُ ما أصنعُ .

فقال : رويداً ترى أمركَ ، و قد كنتَ تلي الأمورَ فتحسنُ ، فلا يخذُلُنا اللهُ و لا إياكَ ، و نحن نرجو في المكثِ مثلَ الذي ترجو في الحثِ .

هذا... و كان النعمانُ ينتظرُ إكمالَ ساعاتٍ كانت أحبَّ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في القتالِ أن يلقى فيها العدوَّ ، و ذلك عند الزوالِ ، و تفيؤِ الأفياء ، و مهبِ الرياحِ .

(الهجومُ من قبل)
(المسلمين)

فلما دخل وقتُ الزوالِ ، و رأى النعمانُ الفرصةَ سانحةً للانقضاضِ على العدوِ الذيــن أصبحــوا تحــت مرمى سهامِ المسلمين ، صلى بالناسِ ، ثم أخذ يحثُّــــهم على الصبرِ و الثباتِ و قال لهم : إذا كــبرتُ التكبــيرةَ الأولى فتأهبوا للحملةِ ، و إذا كبرتُ الثانيةَ فــلا يبقــى لأحدٍ أهبةٌ ، و إذا كبرتُ الثالثةَ و معها الهجومُ فكـــانتِ الحملةُ الصادقةُ ، ثم رجع إلى موقعِهِ .

و تعبأتِ الفرسُ ، و اصطفّوا صفوفاً هائلةً فـــي عددٍ و عدةٍ لم يُرَ مثلُها ، و قد تغلغلَ كثيرٌ منهم بعضُهم في بعضٍ ، و ألقوا حَسَك الحديدِ وراءَ ظهورِهم حتى لا يتمكنَ أحدٌ منهم من الفرارِ .

و أما حالةُ المسلمين ، فقد تقدم النعمانُ بنُ مقرنٍ

فوقف أمام جنودِهِ ، ثم كبَّرَ التكبيرة الأولـــى ، و هـزَّ الرايةَ ، فتأهَّبَ المسلمون للحملةِ ، ثم كبَّرَ الثانيةَ و هـزَّ الرايةَ ، فتأهبوا للهجوم .

ثم كبَّرَ الثالثةَ ، و كان قد امتطى جوادَهَ ، ثم تلا قولَهُ تعالى : (**و لقد كتبنا في الزبورِ من بعدِ الذكرِ أنَّ الأرضَ يرثُها عباديَ الصالحون**)(١) ثم مدَّ يمينَهُ كالسهمِ و قال : انطلقوا بسمِ اللهِ ، و على بركـةِ اللهِ ، وحمـل على الفرسِ فحمل الناسُ معه و انقضوا على عدوِهِـم الذين أخذوا يتساقطون أمامـهم ، و يتـهاوون تحـتَ سيوفِهِمْ كالفراشِ المتساقطِ على ضوءِ السراجِ .

لقد كانت معركةً قويةً حاميةَ الوطيـسِ ، اقتتـل الناسُ فيها قتالاً شديداً لم يُعهدْ مثلُهُ فـي معركـةٍ مـن المعاركِ ، أو موقفٍ من المواقفِ على مرِ العصـور ، حتى لقد رويَ أنَّ قتلى الفرسِ ما بين وقتِ الزوالِ إلـى غروبِ الشمسِ غطَّتْ وجهَ الأرضِ ، فلم يَـرَ النـاظرُ سوى القتلى و الدماءِ ، و لا يرى من الأرضِ شيئاً .

---

(١)الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(استشهادُ النعمانِ بنِ)
(مقرنِ)

بينما كانتِ المعركةُ على أشُدِها قويــــةً ضاريـــةً حاميةَ الوطيس ، و النعمانُ بنُ مقرنٍ يقودُ المعركــــةَ ، ويوجهُ الجنودَ ، و يثيرُ حماسَهم ، و يذكرُهم بنصـــرِ اللهِ تعالى و الجنةِ لمن قُتِلَ في سبيلِ اللهِ شهيداً ثم أخذ يدعو ربَّهُ عز و جل و هو يقولُ : اللهم أعزَّ دينَكَ ، و انصرْ عبادَكَ ، و اجعلِ النعمانَ أولَ شهيدِ اليومَ على إعـــزازِ دينكَ ، و نصرِ عبادِك .

فأجاب اللهُ دعاءهُ ، فاندفع به جوادُهُ فـــي أرضِ المعركةِ حتى انتهى إلى البقعةِ التي كَثُرَتْ فيها الدماءُ ، فزلق الجوادُ فيها ، فسقط النعمانُ عنه فوقع في حومـــةِ الدمِ ، فجاءه سهمٌ أصابه في خاصرتِهِ فقتله رضـــي الله عنه و أرضاه ، و لم يشعرْ بمقتلِهِ سوى أخيه سويدِ بـــنِ مقرنِ ، فغطّاه بثوبِهِ و أخفى موتَهُ عنِ المسلمين كيـــلا

يصابوا بالوهنِ و الضعــــفِ ، و تنخفِــضَ معنوياتُــهُمُ القتاليةُ .

فأخذ سويدُ بنُ مقرنِ الرايةَ و دفع بها إلى حذيفــةَ ابــنِ اليمانِ رضي اللهُ عنه حسبَ وصيةِ أميرِ المؤمنين عمرَ ، و كذلك أمر حذيفةُ بكتمِ خبرِ مقتلِ النعمانِ للسببِ ذاتِهِ .

و استمرَّتِ المعركةُ حاميةَ الوطيسِ ، و لم يشعرْ أحدٌ من المسلمين بمقتلِ النعمانِ حتى غابتِ الشــــمسُ ، وخيَّمَ الظلامُ ، و هرب المشــــركون مدبريــن فتبعُــهمُ المسلمون يطاردونهم في أنحــــاءِ الأرضِ ، و يــنزلون على رقابِهِم سيوفَهُمُ الظامئةَ ، و الفرسُ يفرون أمامـــهم كالجرذانِ ، و كانوا قد قرنوا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسلِ، و حفروا حولهم خندقاً كيلا يفــــرّوا ، و حيــن التقــى الجمعان ، و حميَ وطيسُ المعركةِ ، و قامَتِ الحــــربُ على ساقٍ وقع المقرونون بالسلاســـلِ فـــي خنادِقِـــهِم ، وتساقطوا في الأوديةِ ، فقُتِلَ منهم عددٌ كبيرٌ ، و خلـــقٌ

كثيرٌ ، و ذلك نحو مئةِ ألفٍ أو يزيدون سِوى مَنْ قُتِـــلَ منهم في أرضِ المعركةِ ، و لم ينجُ منهم إلا الشريدُ .

لقد حفر الفرسُ تلــك الخنــادقَ ليوقِعـوا فيــها المسلمين ، و هم يعتقدون أنها نعمةٌ لهم ، و لم يـــدروا أنها نقمةٌ لهم ، و أنهم حفروها بأيديهم لتكونَ لهم مقبرةً، بمعنىً أوضح : حفروا قبورَهـــم بأيديـــهم ، (و مكــرَ السيئِ ولا يحيقُ المكرُ السيئُ إلاّ بأهلِهِ) [1]

(١)الآية ٤٣ من سورة فاطر .

(مقتلُ الفيرزانِ قائدِ)
(الفرسِ)

قُتِلَ في المعركةِ عددٌ كبيرٌ من جنودِ الفرسِ ، ومَنْ بقيَ منهم ضلَّ في الأرضِ ، لم يدرِ أين يذهبُ ، وفي أيةِ جهةٍ يمضي ، و كان أميرُهُمُ الفيرزانُ قد أُصيبَ في المعركةِ ، فاختبأ بين القتلى ، و راح ينسلُّ في خفيةٍ حتى أفلِتَ هارباً مولياً وجهَهُ شطرَ همدانَ ، فاتَّبعَه نعيمُ بنُ مقرن فسبقه إليه القعقاعُ بنُ عمروٍ رضي الله عنه ، و هو يشتدُّ في الهربِ ، و القعقاعُ يطاردُهُ حتى أدركه على مشارفِ همدانَ ، و قد أقبل منها بغالٌ و حمرٌ كثيرةٌ تحملُ عسلاً ، فحالَتْ تلك القافلةُ دون هروبِ الفيرزانِ ، فترجَّلَ عن فرسِهِ ، و تعلق بالجبلِ في محاولةٍ يائسةٍ للهربِ ، فأتبَعَهُ القعقاعُ حتى قتله ، فكان المسلمون يقولون يومئذٍ : إنَّ للهِ جنوداً منها العسلِ ثم غنموا ذلك العسلَ و ما كان معه من أحمالٍ و أموالٍ،

و سُمّيَتْ تلك الثنية ثنيةُ العسلِ .

و لحق القعقاعُ رضي الله عنه بقيةَ المنهزمين من فلولِ الفرسِ إلى همدانَ فحاصَرَها و ما حولها ، فنزل إليه صاحبُها و هو خسروشنوم فصالحه عليها ، و نزل تحت حكمِهِ ، و أدّى إليه الجزيةَ ، و تمَّ الفتحُ و النصرُ و الحمدُ للهِ ربِ العالمين .

ثم رجع القعقاعُ رضي الله عنه إلى حذيفةَ بنِ اليمانِ و مَنْ معه من المسلمين و كانوا قد دخلوا نهاوند بعد فراغِهِم من المعركةِ ، و قضائِهِم على الفرسِ فيها .

(دخولُ المسلمين)

(نهاوند)

دخل المسلمون نهاوندَ منتصرين مظفرين ، بعد أن قضوا على مظاهرِ الشركِ و الكفرِ و المجوسيةِ .

دخلوا مدينةَ نهاوندَ ليزرعوا فيها بذورَ الخيرِ والحبِ و السلمِ و السلامِ ، و ليرسخوا فيها عقيدة التوحيدِ ، و الإيمانِ باللهِ تعالى و ملائكتِهِ و كتبِهِ ورسلِهِ و اليومِ الآخرِ بعد أن كانت تعجُّ بألوانِ الشركِ و الوثنيةِ و عبادةِ النارِ ، و تقديسِ الحكامِ و الأكاسرةِ ، و لم يعرفْ أهلُها معنى الإيمانِ ، و لم يتذوقوا طعم حريةِ اختيارِ العقيدةِ الصحيحةِ .

لقد كانتْ مدينةُ نهاوندَ مظلمةً معتمةً قاتمةً لا يدخُلُها نورُ الإيمانِ ، ولم ترتفعْ فيها كلمةُ التوحيدِ ، ولم يُسْجَدْ فيها للهِ تعالى سجدةٌ واحدةٌ .

و الآن و قد طهرها المسلمون ، و قضوا علـــى جميعِ مظاهرِ الشركِ و الوثنيةِ ، أصبحَتْ مستعدةً تماماً لاستقبالِ الرجالِ المؤمنين الطاهرين و لتفتحَ ذراعيـــها لاحتضانِهِم و ضمّهِم إلى صدرِها لتستنشقَ منهم عبـــقَ الحبِ و شذا الإيمانِ ، و أريجَ الأمنِ و العدلِ و التسامحِ و الحريةِ و السلامِ بعد أن حُرِمَتْ منها سنينَ طويلةً .

لقد دخل المسلمون مدينةَ نهاوندَ و هـــم مكللـــون بالنصرِ و الظفرِ و تأييدِ الله تعالى تعلوهُمُ العزةُ بـــاللهِ ، والفخرُ بدينِهِم ، و الانتسابُ لأطهرِ عقيدةٍ و أشـــرفِها ، واتّباعُ خيرِ نبيّ جعله اللهُ تعالى خاتمَ الأنبيـــاءِ و ســـيدَ المرسلين ، و سيدَ ولدِ آدمَ إلى يومِ القيامةِ .

و مـــِمّا زادني شرفاً و تيهاً   و كدتُ بأخمصي أطأُ الثريّا
دخولي تحت قولِكَ يا عبادي   و أنْ صـــيرتَ أحمدَ لي نبيّا

(عظمةُ الإسلام و عدالته)

و ما إن دخل المسلمون نهاوندَ حتـــى دان لـــهم أهلُها و استقبلوهم بفرحٍ و غبطةٍ كما تستقبلُ الأمُ الحنونُ ولدَها بعد غيابٍ طويلٍ ، و شوقٍ بالغٍ شديدٍ ، كيف لا ؟ و همُ الذين يدركون أن الفاتحين المسلمين ليسوا جبابرةً و لا مستعمرين ، و لا طامعين بأموالِهم ، و لا امتلاكِ أرضِهِم ، و لا خطفِ أبنائِهِم ، و لا سبي نسائِهِم ، إنما جاؤوهم ليخرجوهم من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ اللهِ الواحدِ القهارِ ، و من ضيقِ الدنيا إلى سعتِها ، و مـــن جــورِ الأديانِ إلى عدلِ الإسلامِ .

هذا ما قاله الصحابيُّ ربعيّ بنُ عامرٍ رضـــي الله عنه في مجلسِ رستم و هو يحاوره قبل معركةِ القادسيةِ، كما تقدم في موضِعِهِ .

و هذا ما أثبَتَهُ المسلمون قولاً و عملاً ، يشهدُ لهم

بذلك العدوُّ قبل الصديقِ و لقد أُثِرَ عن أحـــدِ المفكريـــن العالميين قولُهُ في معرِضِ حديثِهِ عنِ الإسلامِ و أخـــلاقِ أبنائِهِ و تعامُلِهِم مع الشعوبِ الأخرى : فتُحَتْ لهم قلوبُ العبادِ قبل أنْ تفتَحَ لهمُ البلادُ .

و يقولُ المفكرُ العالميُّ جورج برناردشو و قـــد بهرتْهُ عظمةُ الإسلامِ ، و أحكامُهُ العظيمةُ ، و تعاليمُـــهُ الساميةُ ، و نظرتُهُ الإنسانيةُ يرددُ بعد دراســـةٍ دقيقـــةٍ وواعيةٍ قولَهُ المشهورَ : إنني أرى في الإســـلامِ ديـــنَ أوروبا في أواخرِ القرنِ العشرين .

و لقد صرخ من قبلِهِ المفكرُ الألمانيُّ (جوتيـــه): إذا كان هذا هو الإسلام أفلا نكونُ كلُّنا مسلمين ....!!

إنَّ الإسلامَ دينُ رحمةٍ و عدالةٍ و حريةٍ ومساواةٍ، ينظرُ إلى جميعِ أفرادِ الأمةِ من جهةٍ ، و إلـــى جميـــعِ رعايا الدولةِ الإسلاميةِ على اختلافِ دياناتِهِم ومعتقداتِهِم نظرةً ملؤُها الرحمةُ و التسامُحُ و الإنسانيةُ .

و ما كان الإسلامُ في يومٍ من الأيـــامِ مســـتغلاً ، وما كان أبداً مستبداً ، و لا ظالمـــــاً ، و لا قاســـياً و لا مفرقاً بين مسلمٍ أو ذمي ، و لا مميزاً بينهما .

جمع عمرُ رضي الله عنه يوماً عمالَـــــهُ ، فلمـــا اجتمعوا دعا الناسَ فقال لهم : إني لم أبعثْ عمالي عليكم ليصيبوا من أبشارِكم ، و لا من أموالِكم ، إنما بعثتُـــــهم ليحجزوا بينكم ، و ليقسموا فَيئكم بينكم ، فمنْ فُعِلَ بـــــه غيرُ ذلك فلْيقمْ .

فما قام أحدٌ إلا رجلٌ واحـــدٌ فقـــال : يـــا أمـــيرَ المؤمنين ، إنَّ عاملَكَ ضربني مئـــةَ سوطٍ ، فدعاه عمرُ فقال : فيمَ ضربتَهُ ...؟ قمْ فاقتصَّ منه .

فقام عمروُ بنُ العاصِ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنك إن فعلتَ ذلك يكثرْ عليك و يكونُ سنةً يأخذُ بها مَنْ بعدك .

قال : أنا لا أُقيدُ ...!!...؟؟ و قد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقيدُ من نفسِهِ ...!!

قال عمروٌ : دعنا فلْنُرْضِهِ .

قال : دونكم فأرضوه .

فافْتدِيَ منه بمائتي دينارٍ ، كلُ سوطٍ بدينارين .

و لقد قال عمرُ رضي الله عنه يوماً : فوالله مـــا أستطيعُ أن أصليَ ، و ما أستطيعُ أنْ أرقدَ ، و إني لأفتحُ السورةَ فما أدري في أولِها أنا أو في آخرِها ...!! مـــن همّي بالناسِ منذ جاءني هذا الخبرُ ...أي منذ توليتُ أمر المسلمين .

و بعث عمرُ جريرَ بنَ عبدِ اللهِ البجليَّ أميراً على جيشٍ ، فسقطَتْ رجلُ رَجُلٍ من المسلمين من شدةِ البردِ، فبلغ الخبرُ عمرَ فأرسلَ إليه ، فقال : يا جريرُ ، إنه مَنْ يسمّعْ يسّمِعِ الله به .

يريد أنك خرجتَ في البردِ ليقالَ : غزا جريرٌ في البردِ ...؟

لم يكن حرصُهُ على المسلمين فحسبُ ، بل لقـــد شـــمِلَ حتى المرتدَّ عنِ الإسلامِ ، فلما فرغ المسلمون من فتـــحِ تُستَرَ ، سألهم عمرُ : هل كان شيءٌ ...؟

فقالوا : نعم ، رجلٌ من المسلمين ارتدَّ عنِ الإسلامِ .

قال : فما صنعتم به ...؟

قالوا : قتلناه .

فغضب عمرُ و قال : فهّلا أدخلتموه بيتاً و أغلقتم عليه باباً ، و أطعمتموه كلَّ يومٍ رغيفاً فاستتبتموه ، فإن تاب و إلا قتلتموه ...!! اللهم إني لم أشهدْ ، و لم آمُـرْ ، و لم أرضَ إذ بلغني .

هذا قليلٌ من كثيرٍ ، و جانبٍ واحدٌ من جوانب عظمةِ الإسلامِ و إنسانيتِهِ فكيف لو ظهرَتْ كافةُ جوانبِهِ...!!

(جمعُ غنائمِ نهاوندَ)

دخل المسلمون نهاوندَ ، فأقبل أهلُها ووجهاؤها يستقبلون أمراءَ المسلمين ، و يقدمون لهمُ الولاءَ والطاعةَ ، ويجمعون لهمُ الأسلابَ و الغنائمَ ، فأخذها المسلمون و دفعوا بها إلى صاحبِ الأقباضِ و هو السائبُ بنُ الأقرعِ الذي ولاه عمرُ رضي الله عنه ذلك الأمرَ .

فلما سمع أهلُ (ماه) بخبرِ همدانَ و نهاوندَ و ما حلَّ بهما بعثوا إلى الأميرِ حذيفةَ بنِ اليمانِ رضي الله عنه فأخذوا منه الأمانَ .

و جاء رجلٌ يقالُ له (الهرند) و هو صاحبُ النارِ التي يعُبدُها الفرسُ فسأل من حذيفةَ الأمانَ ليدفعَ إليه وديعةً عنده كانت لكسرى ادّخرها لنوائبِ الزمانِ .

فأخذها منه و أعطاه الأمانَ .

ثم جاء الهرندُ بسفطين فيهما جواهرُ نادرةٌ جـــدا وثمينةٌ لا تقدرُ بثمنٍ ، و كان الهرندُ يعتقدُ أنـــه بذلـك يستطيعُ أن يغريَ المسلمين بها ، و أنهم سوف يضعفون حين يرونها ، و لكنْ سرعانَ ما فوجـــئ بعكـسِ مـا تصوَّرَ، إنهم لم يضعفوا أمامها ، و لم يصابوا بالفتنـــةِ والإغراءِ لرؤيتِها ، فأدرك الرجلُ أن القومَ لا يريـــدون الدنيا ، و لا ينظرون إلى المالِ نظرةَ عبوديةٍ على أنـــه الأولُ والآخرُ و الظاهرُ و الباطنُ ، فقلوبُهم تقيةٌ نقيـــةٌ طاهرةٌ مطهرةٌ ، يريدون وجهَ اللهِ تعالى و الدارَ الآخرةَ، و لا يريدون عُلُوّاً في الأرضِ و لا فساداً ، و همُ الذيـن يتلونَ قولَ الحقِ تبارك و تعالى : **(يا أيها النـــاسُ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌ فلا تغرّنكم الحياةُ الدنيا و لا يغرّنكم بـــاللهِ الغرورِ)** (١)

(اعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعبٌ و لهوٌ و زينةٌ و تفاخرٌ بينكم و تكاثرٌ في الأموالِ و الأولادِ كمثلِ غيثٍ أعجـــب الكفارَ نباتُه ثم يهيجُ فتراه مصفراً ثم يكونُ حطاماً)(٢)

---

(١)الآية ٥ من سورة فاطر. (٢)الآية ٢٠ من سورة الحديد .

(إنما مثلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه مِنَ السماءِ فاختلط به نباتُ الأرضِ مما يأكلُ الناسُ و الأنعــــامُ حتــى إذا أخذَتِ الأرضُ زخرفَها و ازّيّنَتْ و ظــنَّ أهلُـهاِ أنــهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأنْ لم تغْنَ بالأمسِ) [٣]

---

(٣)الآية ٢٤ من سورة يونس .

(عمرُ و نبأ مقتلِ النعمانِ)

(أميرِ الجندِ)

تأخرَتْ أنباءُ نهاوندَ عـــن المدينـــةِ ، فـــأُصيبَ المسلمون بقلقٍ شديدٍ جعلهم يعيشون في خـــوفٍ و غـــمٍ شديدين لا يهدأُ لهم بالٌ في النهارِ ، و لا يغمـــضُ لـــهم جفنٌ في الليل ، فكانوا يَصِلُون الليلَ بالنهارِ داعين الله تعالى و متضرعين إليه أن يأتيَهم ما يطمئنُهم عن أبنائِهِم و عن مصيرِ القتالِ .

و بات أميرُ المؤمنين عمرُ رضي الله عنه يدعـــو اللهَ عز وجل في الليلِ و النهارِ ، يطلبُ النصرَ و الظفرَ لجنودِ اللهِ تعالى في كلِ جهةٍ من أرضِ اللهِ تعالى .

فبينما رجلٌ يمشي بظاهرِ المدينةِ ينتظرُ الأخبارَ، إذا هو براكبٍ ، فسأله من أين قُدومُهُ ...؟

فقال الراكبُ : من نهاوندَ .

فقال الرجلُ : ما فعل الناسُ ...؟

قال : فتح الله عليهم ، و قتِل الأميرُ ، و غنم المسلمون مغانمَ كثيرةً ، أصابَ الفارسَ منها ستةُ آلافٍ ، والراجلَ ألفان .

ثم ودّعَهُ الراكبُ و انصرف ، فطلبه الرجلُ فلم يجدْهُ ، فرجع إلى المدينةِ فأخبر الناسَ ، و انتشر الخبرُ في المدينةِ حتى بلغ أميرَ المؤمنين عمرَ رضي الله عنه، فطلب الرجلَ ، فسأله عمّنْ أخبَرهُ ، فقال : راكبٌ .

فقال عمرُ : عجباً إنه لم يأتِ إليَّ ليخبرني ...!!

و بات المسلمون في المدينةِ قلقين أكثر من قبل مجيءِ النبأِ ، حتى لقد قيل : إنَّ عمرَ قال : إنما هو رجلٌ من الجنِ ، و هو بريُدهم [1] و اسمُهُ عشيمٌ .

و بعد أيامٍ قليلةٍ قدم المدينةَ طريفُ بنُ سهمٍ وكان في نهاوند مع المقاتلين جاء يحملُ نبأَ النصرِ و الفتحِ ، كان قد أرسلَهُ حذيفةُ بنُ اليمانِ ليزفَ للمسلمين نبأَ النصرِ ، و لم يكنْ طريفٌ يعلمُ بمقتلِ النعمانِ ، لأنَّ

---

(١)البريد : المراسل و حامل الأنباءِ .

أخاه سويداً و حذيفةَ كانا قد أخفيا خبرَ موتِهِ عنِ المسلمين لئلا تضطربَ صفوفهم ، و تدبَّ بينَهمُ الفوضى ، فيصابوا بالضعفِ و الوهنِ ، فلربما أدّى ذلك إلى خسرانِ المعركةِ و العياذُ بالله تعالى .

فسأل عمرُ طريفاً : كيف قُتِلَ النعمانُ ...؟ و مَنْ قَتَلَهُ ...؟

ففوجئَ طريفٌ بهذا السؤالِ ، و استغرب النبأ لأنه لا يعلمُ عنه شيئاً ، و بقيَ النبأُ مستغرباً حتى قَدِمَ جنودُ المسلمين الذين يحملون أخماسَ الغنائمِ من نهاوندَ ، فأخبروه بالأمرِ كاملاً .

فقال بعضُهم : إذن كان ذلكَ الجنيُّ قد شهِدَ وقعةَ نهاوندَ مع المسلمين ، و رجعَ سريعاً إلى قومِهِ نذيراً ...!!

و لما أُخبِرَ عمرُ رضي الله عنه بمقتلِ النعمانِ بكى ، وحزن عليه حزناً شديداً و سأل السائبَ بنَ الأقرعِ عَمَّنْ قُتِلَ من المسلمين

فقال السائبُ : فلانٌ و فلانٌ من أعيانِ الناسِ وأشرافِهِم .

ثم قال : و آخـــرون ممـــن لا يعرفُــهم أمـــيرُ المؤمنين.

فـــجعل عمرُ رضي الله عنه يبكي حزناً عليـــهم ويقـــولُ : ومـــا ضَرَّهـــم أن لا يعرفَـــهم أمـــيرُ المؤمنين....!!...؟؟

لكنَّ اللهَ تعالى يعرفُهم و قد أكرمهم بالشـــهادةِ ، و مـــا يصنعون بمعرفةِ عمر ...!!...؟ و همُ الذين أكرمَهُمُ اللهُ بالشهادةِ ، و خلَّدَ ذكراهم في كتابِهِ الكريـــمِ إلـــى يـــومِ القيامةِ ، قال الله تعالى : **(و لا تحسبَنَّ الذين قتلوا فـــي سبيلِ اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عنـــــد ربِـــهِم يُرزَقـــون . فرحين بما آتاهُمُ اللهُ من فضلِهِ و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم مِنْ خلفِهم ألاّ خوفٌ و لا هـــم يحزنـــون . يستبشرون بنعمةٍ من اللهِ و فضلٍ و أنَّ اللهَ لا يُضيـــعُ أجرَ المؤمنين)**[1] **صدق الله العظيم .**

(١)الآيات ١٦٩-١٧١ من سورة آل عمران .

(عمر و جواهرُ الفرسِ)

قدم السائبُ بنُ الأقرع من نهاوندَ مع الأخماسِ وفيها الجواهرُ التي كانت في السفطين اللذين جاء بهما الهرندُ إلى المسلمين بعد فتح نهاوندَ ، و ماه ، و همدان كما تقدم .

و كان السائبُ قد وضع تلك الجواهرَ في منزلِ أميرِ المؤمنين عمرَ رضي اللهُ عنه الذي انشغل عنها بالسؤالِ عن أخبارِ نهاوند و شهداءِ المسلمين .

و في صباحِ اليومِ التالي أرسل عمرُ في طلبِ السائبِ و أصحابهِ فلم يجدْهم فعلم أنهم رجعوا إلى الكوفةِ ، فأرسل في طلبِهِم فوراً ، فما أدركوهم إلا و قد وصلوا الكوفةَ .

يقولُ السائبُ : فلما أنختُ بعيري بالكوفةِ ، أناخ البريد على عرقوبِ بعيري و قال : أجب أميرَ المؤمنين.

فقلتُ : لماذا ... ؟

قال : لا أدري .

فرجعنا على إثرِنا حتى انتهتُ إليه فقال : مـــالي ولك يا ابنَ أمِ السائب ، بل ما لا بنِ أمِ السائبِ و مـــالي ... !!... ؟؟

يقولُ الســـائبُ : فقلـــتُ و مـــا ذاك يـــا أمـــيرَ المؤمنين... ؟

فقال : و يحك ، و اللهِ إنْ هو إلا أنْ نمـــتُ فـــي الليلةِ التي خرجتَ منها ، فباتتِ ملائكةُ اللهِ تسحُبني إلى ذينكَ السفطين و هما يشتعلان ناراً ، يقولون : لنكوينَّـــكَ بهما .

فأقولُ : إني سأقسمُهما بين المسلمين .

فاذهبْ بهما لا أمَّ لك فبعـــهما ، فاقسِـــمْهما فـــي أعطيةِ المسلمين و أرزاقِهِم فإنهم لا يدرون ما وهبـــوا ، و لم تدرِ أنتَ معهم .

يقولُ السائبُ : فأخذتُهما حتى جئتُ بهما مسجد الكوفةِ ، فغشيني التجارُ ، فابتاعهما مني عمرو بنُ حُريث المخزومي بألفي ألفٍ[1] .

ثم خرج بهما إلى أرضِ الأعاجمِ فباعهما بأربعةِ آلافِ ألفٍ[2] ، فما زال أكثرَ أهلِ الكوفةِ مالاً بعد ذلك

أي أن عمروَ بنَ حُريث ربح بهما أضعافَ ما ابتاعهما و أصبح أغنى أغنياءِ أهل الكوفةِ .

ثم قسم السائبُ ثمنَ السفطين بين المقاتلين الذين شهدوا وقعةَ نهاوندَ فأصاب الفارسَ منه ستةُ آلاف ، والراجلَ ألفان ، و كان عددُ المسلمين ثلاثين ألفاً ... فتأمَّلْ كم كان الثمنُ باهظاً ... ! !

---

(١)ألفي ألفٍ : مليونين .

(٢)أربعة آلافِ ألفٍ : أي أربعة ملايين .

(فتحُ خراسانَ)

كان الأحنفُ بنُ قيسٍ يتطلعُ إلى الإمارةِ ، و يحلُمُ بفتحِ خراسانَ ، و يطمعُ أن تكونَ له دارَ إمارةٍ ، فكـــان يعرضُ ذلك على أميرِ المؤمنين عمرَ رضي الله عنـــه ، و لكنَّ عمرَ يرفضُ ذلك بشدةٍ خوفاً مــــن أن يعــرّضَ جنودَه للخطرِ ، و هو الذي كان يتمنّى أن يكونَ بينــــهم وبين العدوِ بحرٌ من نارٍ ، فلا يخلُصُ إليهم عدوُهم ، ولا يخلصون هم لعدوّهم .

فحين انتَهتْ معركةُ نهاوندَ ، و اطمــــأنَّ عمــرُ رضي الله عنه على سلامةِ جنودِهِ لأنَّ معظمَ بلادِ فارسَ أَصبحَتْ تحتَ سيطرةِ المسلمين ، الأمرُ الـــذي جعــل خطَرَ الفرسِ ضعيفاً ، و كان عمرُ رضي الله عنه قـــد ذكر نصيحةَ الأحنفِ بنِ قيسٍ له في الانسياحِ في أرضِ فارسَ حين قال له : يا أميرَ المؤمنين ، إنك نهيتَنا عـــنِ الانسياحِ في البلادِ ، و إنَّ ملِكَ فارسَ بين أظـــهرِهم ،

و لا يزالون يقاتلون مادام ملكُهم فيهم ، و لم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرجَ أحدُهما صاحبهُ ، و قد رأيتُ أنّا لم نأخذْ شيئاً بعد شيءٍ إلا بانبعاثِهِم و غدرِهِم ، و إنّ ملكَهم يبعثُهم ، و لا يزالُ هذا دأبَهم حتى تأذن لنا بالانسياحِ ، فنسيح في بلادهم و نُزيلَ ملكهم ، فهنالك ينقطعُ رجاءُ أهلِ فارسٍ .

فقال عمرُ رضي الله عنه : صدقتَني و اللهِ ، وأذن لهم في الانسياحِ في بلادِ فارسَ .

و بعد تفكيرٍ قرر عمرُ رضي الله عنه أن يوجهَ جيشَهُ إلى خراسانَ ، و أن يجعلَ الأحنفَ بنَ قيسٍ عليه أميراً .

فركب الأحنفُ جوادَه يقودُ جيشاً كثيفاً إلى خراسانَ ، و مضى يفتحُ البلادَ ، و ينشرُ فيها الإسلامَ ، و يرفعُ لواءهُ فوق ربوعِها ، و استجاب له أهلها ، ودخلوا في دينِ اللهِ أفواجاً عن رضاً و قناعةٍ ، و إيمانٍ و طواعيةٍ . و في طريقِهِ إلى خراسانَ مرَّ بـ(هراةَ) فافتتحها عنوةً ، و مضى إلى (مرو الشاهجانِ) و بعث

أمراءه يضربون في الأرضِ و يفتحون البلادَ ، منـــــهم مطرفُ بنُ عبدِ الله بنِ الشخّيرِ ، بعثهُ إلـــى نيســـابورَ ، والحارثُ بنُ حسانَ إلى ســــرخسَ ، و كـــان كســـرى يزدجردُ قدِ استقرّ في (مرو الشاهجان) فلمـــا اقــترب منها الأحنفُ بنُ قيسٍ ، غادرها إلى (مرِ الروذ) ومنها كتب إلى خاقان ملك الترك يطلبُ منه أن يمدَّه بالرجــالِ لمواجهةِ جحافلِ العربِ الفاتحين ، و طردِهِم من بـــلادِ فارسَ ، و كذلك كتب إلى ملِكِ الصغدِ ، و إلـــــى ملـــكِ الصينِ .

و في الوقتِ نفسِهِ كان الأحنفُ بنُ قيسٍ قدِ افتتــح مرو الشاهجانِ ، و استخلف عليها حارثةَ بنَ النعمـــانِ ، و وفِدَتِ الأمراءُ على رأسِ جيوشـــــها دعمـــاً لجيـــشِ الأحنفِ ، فهرب يزد جرد إلى بلخٍ ، فتبعه الأحنفُ إليها فقاتله فهزمه و مَنْ معه حتى عبرَ النهرَ ، و اســـتوثقتْ بلادُ خراسانَ كلُها للأحنفِ بنِ قيسٍ الذي استخلف فـــي كلِ بلدِ أميراً ، و رجع هو إلى مرو الــروذِ فنزل بها ،

وكتب إلى عمرَ بما فتحَ الله عليه من بلادِ خراسان بكاملِها ، فلما بلغه كتابُ الأحنفِ .

قال : وددْتُ أنه كان بيننا و بين خراسانَ بحرٌ من نارٍ .

فقال له عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه : و لم يا أميرَ المؤمنين ... ؟

قال : إنَّ أهلَها سينقضون عهدَهم ثلاثَ مرات ، فيجتاجون في الثالثةِ .

فقال عليٌّ : يا أميرَ المؤمنين ، لأن يكون ذلك بأهلِها أحبُّ إليَّ من أن يكون ذلك بالمسلمين .

فكتب عمرُ إلى الأحنفِ ينهاه عنِ العبورِ إلى ما وراءَ النهرِ يقول له : احفظ ما بيدكَ من بلادِ خراسانَ .

و هذا من حرصِ عمرَ رضي الله عنه على سلامةِ المسلمين ، و المحافظة على البلادِ التي افتتحوها أن تسقطَ من أيديهم ، فتذهبَ مهابتُهم من قلوبِ أعدائِهم و يسريَ الضعفُ و الوهنُ إلى صفوفِ المسلمين .

(لقاءُ الأحنفِ مع يزدجردَ)

(ملكِ الفرسِ)

حين هرب يزدجردُ مع جيشِهِ أمام الأحنفِ بـــنِ قيسٍ ، و عبر إلى ما وراءَ النهر ، تابع مسَيرهُ إلى ملِكِ الصغدِ ، و ملِكِ الصينِ اللذينِ رفضا مســاعدتَهُ ، و لــم يحفلا بكتبِهِ ، حتى دخل بلادَهما ، فوجدا أنفسهما فـــي موقفٍ حرجٍ أمامه ، فرأيا أنَّ الواجبَ ، و شرع الملوكَ يقضيان مساعدتَهُ ، و الوقوفَ إلى جانبِهِ ، فشكل كـــلٌّ منهما جيشاً كثيفاً وذهبا مع يزدجردَ إلى بلخ ، فقـــاتلوا عمالَ الأحنفِ فهزموهم و استردّوا مدينةَ بلخٍ .

و فرَّ عمالُ الأحنفِ إليه إلى مرو الروذِ ، وتبعهمُ المشركون إليها من بلخٍ حتى التقوا بالأحنفِ بنِ قيـــسٍ الذي وقف ينظرُ في أمرِ المشركين و أعدادهِمُ الهائلــةِ ، و بينما هو حائرٌ في أمرهِ يبحثُ عن خطـــةٍ عســكريةٍ ذكيةٍ لمقابلةِ عدوّهِ إذ به يسمعُ رجلاً يقولُ لآخـــرَ : إنْ

كان الأميرُ ذا رأيٍ فعليه أنْ يقفَ دون هـــذا الجبـلِ ، فيجعلهُ وراءَ ظهرهِ ، و يبقى هذا النهرُ خندقاً حولــه ، فلا يأتيه العدوُّ إلاّ من جهةٍ واحدةٍ .

فأعجبَ الأحنفُ بهذه الخطةِ و مال إليها ، و هَـمَّ بتنفيذِها ، و في الصباحِ أمر جنودَه فوقفوا دون الجبـلِ كما تحدثَ ذلك الرجلُ ، و قد تفاءلَ الأحنفُ فكان ذلـك أمارةَ النصرِ و الفتحِ .

و تقدّم جيشُ المشركين في جمعٍ عظيمٍ هـائلٍ ، فوقف الأحنفُ خطيباً يحثُّ جنودَه على الصبرِ و الثباتِ و القتالِ في سبيلِ اللهِ مهما كان عددُ المشركين كثـيراً ، و مهما فاقهم من عددٍ و عُدَّةٍ ، فقال :

إنكم قليلٌ ، و عدوُّكم كثيرٌ ، فلا يهولنَّكم جمعُـهم و لا كثرةُ عددِهم ، فـ (كم مِنْ فئةٍ قليلةٍ غَلَبَـتْ فئـةً كثيرةً بإذن اللهِ و اللهُ مع الصابرين)[1] .

هذا ... و كان من عادةِ جيشِ خاقانَ أنهم يقاتلون بالنهارِ ، ثم لا يدري أحدٌ أين يبيتون في الليل ... ؟

---

(١) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

فجعل الأحنفُ يرقُبهم كلَّ يومٍ من مكــــانٍ لآخــرَ أيــن يذهبون و أين يبيتون ... ؟ فسار ليلةً مع طليعــــةٍ مــن جنودهِ نحو جيشِ خاقانَ ، فعلم أين يكمنون ، فلما طلـــع الفجرُ و كادتِ الشمسُ تشرقُ خرج من جيـــشِ خاقــانَ فارسٌ طليعةٌ يحملُ طبلاً و عليه طوقٌ ، فجعل يضــوبُ بطبلِهِ فتقدَّمَ إليه الأحنفُ ، فتصدّى له الجنــديٌّ فاختلفــا طعنتين ، فكانت طعنةُ الأحنفِ أسرعَ فســـقط الجنــديٌّ قتيلاً ، فاستلبَ الأحنفُ طوقَهُ و وقف مكانَـــهُ ، فخــرج فارسٌ آخرٌ فجعل يضربُ بطبلِهِ ، فانقضَّ عليه الأحنــفُ فقتلَهُ أيضاً و استلَبهُ طوقَهُ و وقفَ مكانهُ .

ثم خرج فارسٌ ثالثٌ ، فقتله الأحنفُ أيضاً و أخذ طوقَهُ ، و انطلق إلى جيشِهِ دون أن يعلمَ أحدٌ بما جــرى فلما أُخبِر خاقانُ بمقتلِ فرسانهِ الثلاثةِ غضــــب غضبــاً شديداً ، و تشاءمَ لما حَلَّ بفرسانِهِ ، فجمع جيشَهُ و قـــال لهم : قد طال مقامُنا هنا ، و قد أُصيبَ هــؤلاءِ القــومُ بمكانٍ لم نُصَبْ بمثلِهِ ، مالنا في قتالِ هؤلاء القومِ مِـــنْ

خيرٍ ، فهيّا بنا نرجعْ إلى بلادِنا ، فذهبوا من حيث أتـــوا
و لم يستمّروا في مساعدةِ يزدجرد .

أما المسلمون فقدِ ارتفعتْ معنوياتُـــهُم القتاليـــةُ ،
وتمنّوا لو يلقون عدوَّهم ليثبتوا لهم جدراتَهم في القتالِ ،
و تجاوزِ الصعابِ ، و عدمِ الاكتراث بقوةِ عدوهِم وكثرةِ
عددِهِ ، فقالوا لأميرهِمُ الأحنفِ : ما ترى في اتّباعِهِم...؟

فقال : أقيموا في أمـــاكنِكم و دعوهـــم ، فكـــان
الأحنفُ مصيباً بذلك ، مكتفياً بالنصرِ المعنوي ، متمثلاً
قولَ اللهِ تعالى : (**وردَّ اللهُ الذين كفروا بغيظِـــهم لـــم
ينالوا خيراً و كفى اللهُ المؤمنين القتالَ و كان اللهُ قويـــاً
عزيزاً**)[1] و رجع كسرى يزدجردُ خائباً فاشـــلاً يجـــرُّ
أذيالَ الذلِ و الهزيمةِ و الخسرانِ ، لم يطردِ المسلمين ،
و لم يشفِ حقدَهُ و غليلَهُ ، و لم يحصلْ على خيرٍ ، و لم
ينتصرْ كما كان يعتقدُ و يزعُمُ ، بل لقد تخلّى عنه مَـــنْ
كان يرجو منه النصرَ و العون ، و تنحى عنه و تـــبرّأَ
منه ، و بقي مذبذباً (**لا إلى هؤلاءِ و لا إلى هؤلاءِ ومَنْ**

(١)الآية ٢٥ من سورة الأحزاب .

يضللِ اللهُ فلنْ تجدَ له سبيلاً) [٢] لقد تحيَّرَ فـــي أمــرهِ ماذا يصنعُ ...؟

و إلى أين يذهبُ ...؟

فأشار عليه بعضُ المقربين منه حين قـــال لـــهم : قـــد عزمتُ أن أذهبَ إلى بلادِ الصينِ ، أو أكونَ مع خاقـــانَ في بلادِهِ .

فقالوا : إنا نرى أن نصانعَ هؤلاءِ القومَ ، فـــإنَّ لهم ذمةً و ديناً يرجعون إليه ، فنكونَ في بعـــضِ هـــذه البلادِ و هم مجاورونا ، فهم خيرٌ لنا من غيرِهم و قـــد سمعنا عن أخلاقِهِم و ســـلوكِهِم و صدقِـــهِم ووفائِـــهِم ، وقيامِهِم بالعهودِ والمواثيقِ ما لم نسمعْ عن غيرِهِم .

فأبى عليهم كسرى ذلك (استكباراً فـــي الأرضِ ومكرَ السيئِ و لا يحيقُ المكرُ السيئُ إلا بأهلِهِ)[٣]

فهو كالذي قال اللهُ عز وجل فيه : (**وإذا تولّى سعى في الأرضِ ليفسدَ فيها و يُهلكَ الحرثَ و النســلَ و اللهُ لا**

---

(٢)الآية ١٤٣ من سورة النساء .(٣)الآية ٤٣ من سورة فاطر .

يحبُ الفسادَ . و إذا قيل له اتّقِ اللهَ أخذتْهُ العزةُ بـالإثمِ فحسبُهُ جهنم و لبئسَ المهاد) [1]

هذا من أمـر يزدجـردَ ، خيبـةٌ و هزيمـةٌ ، ومطاردةٌ، وتشردٌ، و ذلٌّ و خسرانٌ ، و إلى جانبِ ذلـك كبرٌ وغرورٌ وغطرسةٌ .

أما ما كان من أمرِ المسلمين و أميرِهِمُ الأحنـفِ ابنِ قيسٍ فلقد جمع الأحنفُ جنودَهُ و انطلق بهم إلى بلخٍ فقاتل المشركين و طردَهم منها ، و فتحها عنوةً و أعـادَ عمّالَهُ إليها ... و الحمد لله رب العالمين .

---

(١)الآيتان ٢٠٥-٢٠٦ من سورة البقرة .

(خيبةُ كسرى يزدجردَ)
(مرةً أخرى)

لم يكتفِ يزدجردُ بما أصابه من خيبةٍ و هزيمةٍ ، وما لحق به مِنْ ذلٍ و تشردٍ و خسرانٍ ، بل بعث إلى ملِكِ الصينِ مرةً أخرى يستغيثُ به ، و يستنجدُهُ بكتابٍ بعثَهُ مع رسولٍ له ، فجعل ملكُ الصينِ يسألُ رسولَ كسرى عن صفةِ هؤلاءِ القومِ الذين فتحوا بلادَهم ، وقهروا جيوشَهُمُ الجرارةَ ، و انتصروا على فرسانِهِمُ الكرارةِ ، و قضوا على غطرستِهِم ، و كسروا شوكتَهم، و أذلّوهم ... ؟

فجعل الرسولُ يردُّ عليه ، و يخبرُهُ عن صفاتِهِم، وجرأتِهِم، و أخلاقِهِم ، و كيف يركبون الخيلَ و الإبلَ، و ماذا يصنعون ، و كيف يصلون و يتعاملون ...!!

فكتب إليه مع رسولِهِ يقولُ له :

إنه لم يمْنعني أن أبعثَ إليك بجيشٍ أولُهُ بمرو، وآخرُهُ بالصينِ لجهالةِ بما يحقُ عليَّ ، و لكنَّ هؤلاءِ القومَ الذين يقاتلونك ، و كما وصف رسولُكَ ، صفتُهم لو يحاولون الجبالَ لهدّوها ، و لو جئتُ لنصرِكَ أزالوني ما داموا على وصفِ رسولِكَ .

فإني أرى أن تسالِمَهم ، و تؤديَ لهمُ الجزيةَ ، وتمكث في بلادِك ، و في قصرِك و بين شعبِكَ .

فرفض كسرى يزدجردُ أن يقبلَ رأيَ ملِكِ الصينِ، وآثَرَ أن يبقى مع أهلِهِ متشرداً ، هارباً في البلادِ مقهوراً لا ملجأً له يأوي إليه ، و لا بيتَ يسكنُهُ ولا أرضَ يستقرُّ عليها، يعيشُ فيها آمناً بعيداً عن التهديدِ ، و خطرِ الحربِ وهجومِ الأعداءِ الذين أقضوا مضجَعَهُ في الليلِ و النهار ، وحرموه ، بل حَرَمَ نفسَهُ الأمنَ والراحةَ و الاستقرارَ ، (وما ظلمناهم و لكنْ كانوا أنفسَهم يظلمون) .

(كتابُ الأحنفِ إلى عمرَ)

(بالنصرِ)

حرَّرَ الأحنفُ بنُ قيسٍ مدينةَ بلخٍ ، و طهرَها من رجسِ المشركين المجوسِ بعد أن عَدَوا على المسلمين وأخذوها منهم ، و استقرَّتِ الأمورُ في بلادِ خراسانَ ، وهدأتِ فيها الأحوالُ السياسيةُ و العسكريةُ ، و ذاقَ أهلُها طعمَ الأمنِ و الأمانِ ، كتب الأميرُ الأحنفُ بنُ قيسٍ إلى أميرِ المؤمنين عمرَ رضيَ الله عنه يخبرُهُ بالنصرِ و الفتحِ وما أفاء اللهُ عليهم من أموالٍ وافرةٍ ، وما هدى اللهُ تعالى الناسَ للإيمانِ ، و دخولِهِم في دينِ اللهِ أفواجاً . و أنَّ المشركين حاولوا استرداد بعضِ البلادِ فباؤوا بالفشلِ والخيبةِ و الخسرانِ بعد أنْ رَدَّهُمُ اللهُ تعالى بغيظِهِم لم ينالوا خيراً .

فقام عمرُ رضي الله عنه فصعِدَ المنبرَ و زفَّ للمسلمين بشرى الفتحِ و الظفرِ ، و قرأ كتابَ الأحنفِ أمامهم ، ثم قال رضي الله عنه :

إنَّ اللهَ بَعَثَ محمداً بالهدى ، ووعَدَ على اتّباعِـــهِ من عاجلِ الثوابِ و آجلِهِ خيرَ الدنيا و الآخرةِ ، فقـــال :
(هو الذي أرسَلَ رسولَهَ بالهدى و دينِ الحق ليظـــهرَهُ على الدينِ كلهِ و لو كرِهَ المشركون) (١)

فالحمدُ للهِ الذي أنجز وعدَهُ ، و نصَرَ جنـــدَهُ ، ألا و إنَّ اللهَ قد أهلَكَ مُلْكَ المجوسيةِ ، و فرَّقَ شـــملَهم ، فليســـوا يملكون من بلادِهِم شبراً يضيرُ بمسلمٍ ، ألا و إنَّ اللهَ قـــد أورَثكم أرضَهم و ديارَهم و أموالَهم و أبنـــاءهم لينظـــرَ كيف تعملون .

فقوموا على أمرِهِ على وجلٍ ، يوفِ لكم بعهدِهِ ، ويؤتِكم وعْدَهُ ، و لا تغيروا يستبدلْ قوماً غيرَكم ، فإني لا أخافُ على هذه الأمةِ أنْ تؤتى إلا مِنْ قِبلِكم .

و صدق عمرُ رضي اللهُ عنه ، و صدق رســـولُ الله صلى الله عليه وسلم الذي قال في حقِ عمرَ : جعـــلَ اللهُ الحقَّ على لسانِ عمرَ و قلبِهِ .

---

(١)الآية ٣٣ من سورة التوبة .

ذلك أنّ عمرَ رضي الله عنه ختم كلمتَهُ المباركـــةَ بعبارةٍ مستوحاةٍ من كتابِ الله تعالى :

(و إنْ تتولّوا يستبدلْ قومـــاً غــيرَكم ثـــم لا يكونـــوا أمثالكم)[1] صدق الله العظيم .

---

(١)الآية ٣٨ من سورة محمد صلى الله عليه و سلم .

خاتمةٌ

(في ذكرِ ترجمةِ الأحنفِ بنِ قيسٍ)

اسمُهُ و نسبُهُ :

هو الضحاكُ بنُ حُصَين التميميُّ السعديُّ ، وقيل: اسمُهُ صخرٌ ، و الأحنفُ لقبٌ له .

كنيتُهُ :

يكنى الأحنفُ أبا معاويةَ ، و قيل : أبا بحرٍ البصريّ.

إسلامُهُ :

أسلم الأحنفُ بنُ قيسٍ في حياةِ النبي صلى الله عليه و سلم و لم يَرَهُ ، فهو إذن تابعيٌّ و ليس بصحابي، قال عنه علماءُ التاريخِ : هو بصريٌّ تابعيٌّ ثقةٌ .

صفتُهُ :

كان الأحنفُ أعورَ ذا عينٍ واحـــدة ، أحنــف[1] الرجلين ، ذميماً قصيراً ، كوسجاً[2] له بيضةٌ واحـــدةٌ ، وكان سببُ عورهِ أنه أُصيبَ بالجدري فذهبتْ عينُـــه ، وقيل : أُصيبَ في فتحِ سمرقند ، و يروى أنه هو الــذي فتحها ... و الله أعلم .

مكانتُهُ :

كان الأحنفُ سيدَ قومِهِ ، شريفاً مطاعاً مؤمنـــاً ، جميلَ الحديثِ ، حلوَ المنطقِ ، حليماً لدرجةِ أنـــه كـــان يضرَبُ به المثلُ في الحلمِ و الأناةِ ، و له أخبارٌ كثـــيرةٌ في الحلمِ سارَتْ بها الركبانُ ، و تناقلها الناسُ ، فكـــان يقالُ : أحلمُ من الأحنفِ بنِ قيسٍ .

قال عنه عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه : هـــو مؤمنٌ عليمُ اللسانِ .

---

(١)الحنف في القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها .

(٢)الكوسج : الذي لا شعر على عارضيه ، أو هو ناقص الأسنان .

احتبسه عمرُ مرةً عن قومهِ يختبرُهُ ، ثم قـــال :
هذا واللهِ السيدُ ، أو قال : السؤددُ . رويَ أنه خطب أمام عمرَ مرةً، فأعجبَ بحديثِهِ ، و حسنِ منطقِهِ .

و قال عنه الحسنُ البصريُّ : ما رأيتُ شـــريفَ قومٍ أفضلَ منه .

و قال يعقوبُ بنُ سفيانَ : كان الأحنـــفُ جـواداً كريماً، و كان رجلاً صالحاً ، أدرك الجاهليةَ ثم أســلم ، و ذُكِرَ للنبي صلى الله عليه وسلم فاستغفر له .

و قال عنه يعقوبُ أيضاً : كان ثقةً مأموناً قليـــلَ الحديثِ ، و كان كثيرَ الصلاةِ بالليلِ ، و كـــان يســرجُ المصباح ، و يصلي و يبكي حتى الصباحِ .

و كان يعاتبُ نفسَهُ و يقولُ : مـــا حَمَلَـكَ علـــى كذا...؟ ما حملك على كذا ...؟

و يقول لنفسِهِ أيضاً : إذا لم تصبرْ علـــى المصبـاحِ ، فكيف تصبرُ على النارِ الكبرى ...؟

قيل له : كيف تسوَّدَك قومُك و أنتَ أرذلُهم خلقةً ...؟

قال : لو عاب قومي الماءَ ما شربتُهُ .

كان الأحنفُ من أمراءِ الجندِ مع علي بـــنِ أبـــي طالب رضي الله عنه يومَ صِفِّينَ و هو الذي صالحَ أهلَ بلخٍ على أربعمئةِ ألفِ دينارٍ في كلِ سنةٍ ، و له وقـــائعٌ مشهودةٌ مشهورةٌ .

حلمُهُ :

من كلامِهِ في الحلم و قد سُئِلَ عنه : ما هو ...؟

فقال : الذلُّ مع الصبرِ .

و كان إذا تعجب الناسُ من حلمِهِ يقـــولُ : واللهِ إني لأجدُ ما يجدون ، و لكني صبورٌ ، و قال : وجدتُ الحلمَ أنصر لي من الرجال .

و قال : عجبتُ لمن يجري مجرى البولِ مرتيـــن كيف يتكبَّرُ ...؟

و قال : ما أتيتُ بابَ أحدٍ من هؤلاءِ إّلا أن أُدعى ، ولا دخلتُ بين اثنين إلا أن يدخلاني بينهما .

قيل له : بم سُدْتَ قومك ...؟

قال : بتركي من الأمر ما لا يعنيني ، كما عنـــاك مـــن أمري ما لا يعنيك .

روي أن رجلاً أغلظ له في الكلامِ فقال له : والله يا أحنفُ لئنْ قلتَ لي واحدةً لتسمَعَنَّ بدلها عشراً .

فقال له الأحنفُ : إنك إن قلتَ لي عشراً لا تسمعُ مني واحدةً .

و **من دعائِهِ** : أنه كان يقولُ : اللهم إنْ تعذبني فأنا أهلٌ لذلك ، و إنْ تغفِرْ لي فأنتَ أهلٌ لذلك .

روي أنه دخل على معاويةَ فوجده غضبانَ على ابنِهِ يزيدَ ، فدخل بينهما فاستطاع أن يصلحَ بينهما ، وصدف أن بعث معاويةُ إلى يزيدَ بمالٍ جزيلٍ ، وقماشٍ كثيرٍ ، فأعطى يزيدُ نصفَهُ للأحنفِ .

كان زيادُ بنُ أبيه يقربه و يدنيه من مجلسِهِ ، ويستعينُ برأيِهِ و حلمِهِ ، فلما مات زيادٌ و خلفه ابنُهُ عبدُ الله بنُ زياد ، لم يهتمَّ بالأحنفِ مثلَ أبيه و تأخرَتْ منزلتُهُ عنده، فلما قدِمَ زعماءُ أهلِ العراقِ على معاويةَ أدخلهم عليه على مراتبِهِم عنده ، فكان الأحنفُ آخرَ مَنْ

أدخله عليه ، فلما رآه معاويةُ أجلَّهُ و أعظَمَهُ ، و أدناه منه و أكرمَهُ ، و أجلَسَهُ إلى جانبِهِ ، ثم اهتمَّ به و أقبل عليه يحادثُهُ دونهم ، ثم شرع الحاضرون في الثناءِ على ابنِ زيادٍ ، و الأحنفُ ساكتٌ .

فقال له معاويةُ : مالك لا تتكلمُ ...؟ قال : إنْ تكلمتُ خالفتُهم .

فقال معاويةُ : أشهدُ كم أني قد عزلتُهُ عنِ العراقِ، ثم قال لهمُ : انظروا لكم نائباً ، و أعطاهم مهلةً ثلاثةَ أيامٍ ، فاختلفوا بينهُمُ اختلافاً كثيراً ، و لم يذكرْ أحدٌ منهم بعد ذلك عُبيدَ اللهِ بكلمةٍ ، و لم يتكلمِ الأحنفُ في ذلك كلمةً واحدةً مع أحدٍ منهم ، فلما اجتمعوا بعد ثلاثٍ أفاضوا في ذلك الكلامِ ، و كثُرَ اللَغَطُ ، و ارتفعَتِ الأصواتُ ، و الأحنفُ ساكتٌ لا يتكلمُ .

فقال له معاويةُ : تكلّمْ .

فقال الأحنفُ : إنْ كنتَ تريدُ أنْ تولّيَ فيها أحداً من أهلِ بيتِكَ فليس فيهم مَنْ هو مثلُ عبيدِ اللهِ ، فإنه

رجلٌ حازمٌ لا يسدُّ أحدٌ منهم مسدّه ، و إنْ كنــتَ تريــدُ غيرَهُ فأنتَ أعلمُ بقرابتِك .

فَرَدَّه معاويةُ إلى الولايةِ ، ثم قال له سراً : كيف جهلتَ مثلَ الأحنفِ بنِ قيسٍ ...؟ إنه هو الذي عَزَلَــكَ وولاّكَ و هو ساكتٌ ...!!

فعظُمَتْ منزلةُ الأحنفِ بعد ذلك عند عبيدِ اللهِ بنِ زيــادٍ كثيراً، و أصبح من أقربِ الناسِ منه .

وفاتُهُ :

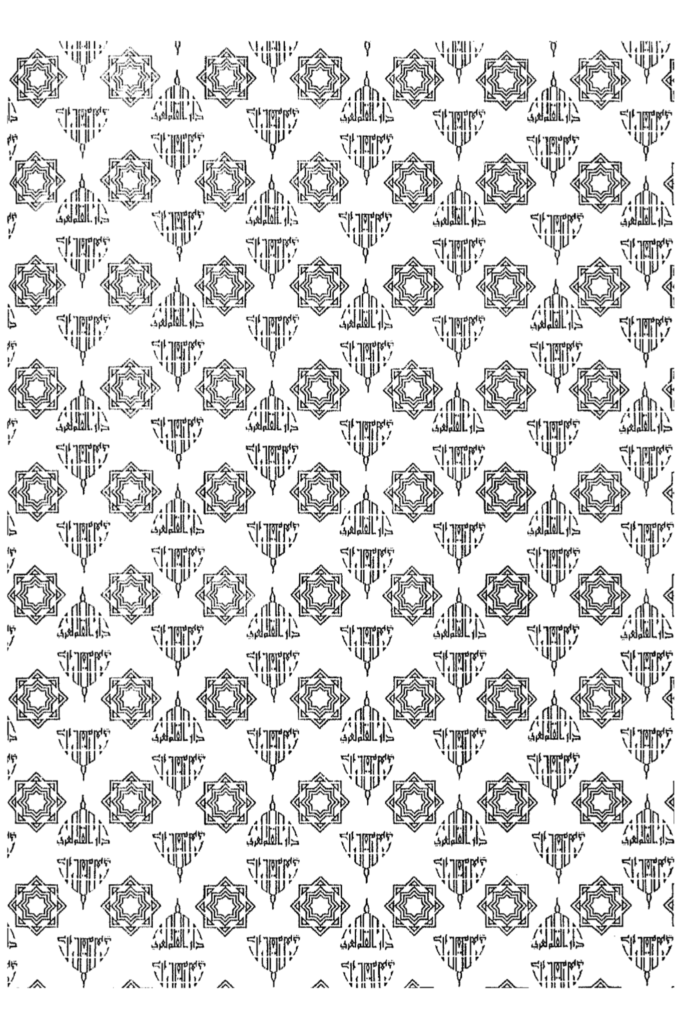
توفيَ الأحنفُ بنُ قيسٍ بالكوفةِ ، و صلى عليــه مصعبُ بنُ الزبيرِ ، و مشى في جنازتِهِ ، و له أخبــارٌ كثيرةٌ، و حكاياتٌ جميلةٌ ، و طرائفُ غريبةٌ تدل علــى ذكائِهِ، و عظيمِ منزلتِهِ في قومِهِ ، و آثاره في تاريخنــا الإسلامي العريق .

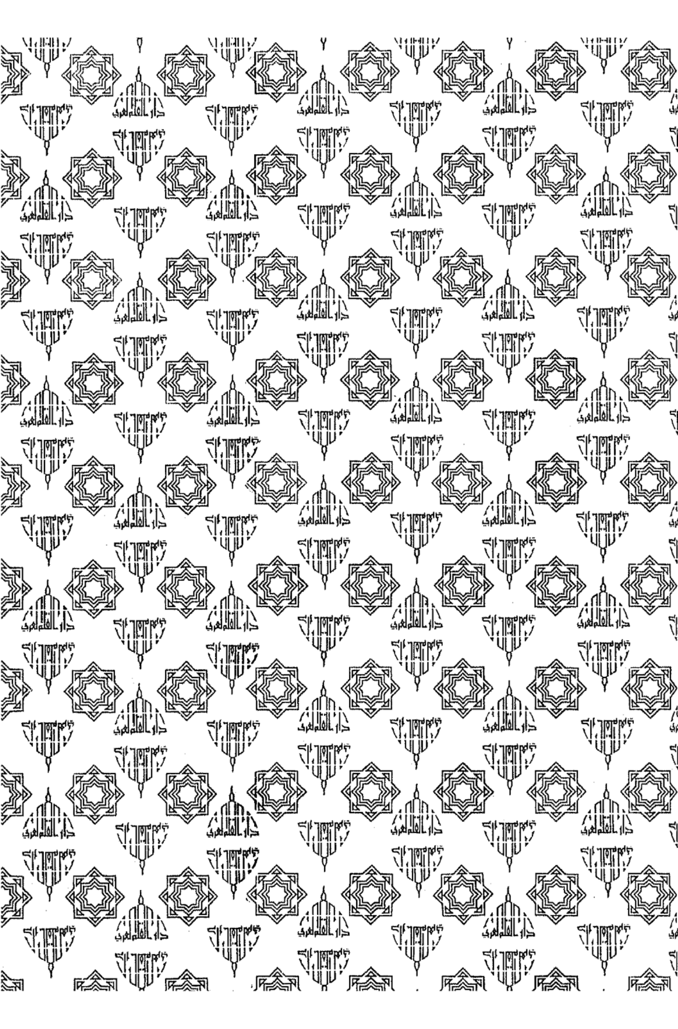
تمتِ الرسالةُ ، و الحمد لله رب العالمين .

(ربنا لا تزِغْ قلوبَنا بعد إذ هديتَنا وهَبْ لنا مــن لدنــكَ رحمةً إنك أنتَ الوهّاب) .

و إلى اللقاء مع معركةِ أخرى .

الفهرس





معارك عربية إسلامية خالدة

للصغار واليافعين

١ - معركةُ ذي قـار
٢ - معاركةُ بـدْر
٣ - معركةُ أحُـد
٤ - معركةُ الخـنْدقِ
٥ - معركةُ حُـنَيْنٍ
٦ - معركةُ اليـمَامةِ
٧ - معركة الـيرموكِ
٨ - معركةُ الجـسْرِ
٩ - معركةُ القَـادسيّةِ
١٠ - معركةُ فتحِ المـدائنِ
١١ - معركةُ نـهاوندْ
١٢ - معركةُ فتحِ الأندلس
١٣ - معركةُ بَلاطِ الشّهداءِ
١٤ - معركةُ وادي الحِجارَةِ
١٥ - معركةُ العـموريّـةِ
١٦ - معركةُ الـزّلاّقةِ
١٧ - معركةُ حِـطّينَ
١٨ - معركةُ بيتِ المـقْدِسِ
١٩ - معركةُ عـكّا
٢٠ - معركةُ عَيْنِ جالوت

لم تكن الحربُ لدى العرب المسلمين غايةً لذاتها ، وإنما كانت لردّ العدوان ، ولدرء الأخطار ، ولإزاحة اولئك الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون دون انتشارها. وهي معارك تشمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجودُ با[illegible] غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال بحلب - إذ تنشر هذه الكتب - إنما تسعى إ[illegible] نفوس الأبناء حبّ التضحيةِ والفداءِ ، وحبّ ابائهم الذين بذلوا دماء[illegible] شامخةً لايدنّسها مستعمرٌ غاشم.

والله من وراء القصد

الناشر



I.S.B.N: 1 - 5050 - 3

